صِـــرَاعُ الحَضَـــارات

مَفهُومُهُ، وحَقِيقَتُهُ، وواقِعُه، ومَبْدَؤُهُ ومُنْتَهَاه

عبد المنعم مصطفى حليمة

" أبو بصير الطرطوسي "

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ مقـدمـة:

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾آل عمران: ١٠٢.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾النساء:١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾الأحزاب: ٧٠-٧١.

أما بعد، فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هَديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ محدَثةٍ بدعةٌ، وكُلَّ بدعةٍ ضلالَةٌ، وكُلَّ ضلالةٍ في النار.

اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطِرَ السماواتِ والأرض، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختُلِف فيه من الحق بإذنِك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم.

لا يزالُ الحديث محتدِماً بين طبقة السَّاسة والمثقفين والباحثين والإعلاميين عن مفهوم صراع الحضارات، وحقيقته، وواقعه .. وبخاصة الصراع بين الحضارة الغربية الرأسمالية النصرانية الديمقراطية وبين الحضارة الإسلامية.

وهل لهذا الصراع وجود من قبل، واليوم، وغداً .. وإن كان موجوداً متى كان مبتداه ومتى يكون منتهاه .. وهل يمكن تفاديه وإيقافه .. وكيف؟

وفريق من هؤلاء الساسة والمثقفين . ومنهم من هو محسوب على الاتجاه الإسلامي . قد ذهب بعيداً؛ حيث تراه يزعم أنه يعمل على إيقاف صراع الحضارات .. وأنه لا بد من إيقاف هذا الصراع .. وأنه قادر على إيقاف صراع الحضارات .. وأنه لا يسمح لشرذمة قليلة بأن تتسبب بهذا الصراع بين الحضارات .. وغير ذلك من الاطلاقات المتسرعة، والتي تنم عن جهلهم وعدم فهمهم لحقيقة الصراع بين الحضارات .. ظناً منهم أن صراع الحضارات يعني صراع آلة عسكرية وآلة .. أو صناعة وصناعة .. أو مبانٍ وجسور شاهقة ضخمة تتصادم وتتصارع ليزيل كلٌّ منها الآخر .. أو مجرد تقاتل فريق من الناس ضد فريق آخر .. هكذا يظنون!

لذا وجدت الحاجة الماسة لبحث هذا الموضوع، والإجابة عن الأسئلة التالية: ما هو مفهوم صراع الحضارات، وما هي حقيقته، وهل له واقع نعايشه ونلمسه .. وما هو موقف الأدلة النقلية والعقلية من هذا الصراع .. وغيرها من الأسئلة ذات العلاقة بالموضوع؟

نسأل الله تعالى السداد، والتوفيق، والقبول .. وأن يجعل من عملنا هذا مفتاح خير مغلاق شرٍّ، إنه تعالى سميع قريب مجيب.

* * * * *

ـ معنى الحضارة ومفهومها:

فأقول: الحِضارة والحَضارة **لغـــة**: هي الإقامة في الحضَر، والحضَر خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سُميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار وعمران، بخلاف الباد في البادية فهو في تنقل دائم يبحث عن الكلأ والماء، لا يعرف القرار ولا العمران.

ويُقال: فلان حضَري إذا كان من أهل الحاضرة، وفلان بدوي إذا كان من أهل البادية، والحضري لما تميز به عن البدوي بالثبات والإقرار وعدم التنقل والترحال فإن ذلك ساعده على أن يثري حضارته مقر إقامته بجميع مظاهر النمو والتطور، والإبداع العلمي والفني والعمراني، والاجتماعي .. فالحضارة هي محضن كل تطور أو إنجاز إنساني[١].

أما **اصطلاحاً**: فالحضارة هي عبارة عن مجموع المفاهيم، والقيم، والتصورات، والعقائد، والقوانين، والمبادئ، والعادات التي تشكل سلوكاً معيناً ومحدداً عند الإنسان، وتحدد له طريقة معينة في الحكم، والعيش، والحياة، والتعامل مع الآخرين.

فالصدقُ مثلاً: خُلق ومفهوم وقيمة حضارية .. يهدي إلى البر .. ويترتب عليه سلوك إيجابي متحضر على مستوى الفرد والمجتمع .. بخلاف الكذب فهو خلق مذموم غير حضاري .. لأنه يهدي إلى الفجور والفساد .. ويشكل سلوكيات سلبية متخلفة مدمرة تسيء للفرد والمجتمع سواء.

وكذلك نقول: في خُلق ومفهوم الأمانة، والوفاء بالعهد، والعدل، والشورى، والإيثار، والشكر، والجود، والشجاعة، والحياء، والأدب .. والقناعة، والتواضع، وإغاثة الملهوف والمحتاج، وحب الخير للآخرين، ومفهوم الحرص على الوقت، وحسن استغلاله فيما ينفع .. والاقتصاد من غير تقتير ولا تبذير ولا إسراف .. والدقة في المواعيد .. والنظام والتنظيم .. وعدم الفضول وتدخل المرء فيما لا يعنيه .. والنظافة والحرص عليها، والرياضة الهادفة التي تُثمر جسداً سليماً وقوياً .. وحب الاطلاع والاستكشاف، والمطالعة والقراءة الراشدة الواعية، والحرص على العلم، والتعلُّمِ، والتعليم .. والعلم التجريبي التطبيقي .. وحب العمل والانتاج والاعتماد على النفس؛ فاليد العليا خير وأحب إلى الله تعالى من اليد السفلى .. فهذه كلها مفاهيم وقيم حضارية معتبرة .. تعطي وتفرز سلوكاً إيجابياً نافعاً ومتحضراً .. مؤداه إلى عمران الأرض بما ينفعها وينفع ساكنيها .. وكل مفهوم حضاري يكون ضده بالضرورة مفهوماً غير حضاري .. والعمل به مؤداه إلى

---

[١] أنظر لسان العرب، والمعجم الوسيط.

سلوك سلبي مذموم غير متحضر .. ينعكس على الأرض وساكنيها بالضر والفساد، والشر؛ فإذا قلنا مثلاً بأن الوفاء بالعهد مفهوم حضاري فيكون ضده الغدر وهو مفهوم غير حضاري، وكذلك العدل، فضده الظلم وهو مفهوم غير حضاري .. وهكذا بقية المفاهيم والقيم الأخرى.

واعلم أن أعظم وأجل وأرقى مفهوم حضاري على الإطلاق هو مفهوم التوحيد؛ الذي يحمل المرء على أن يُفرد الخالق ﷻ بالعبادة، والقصد، والطاعة، والمحبة، والتحاكم .. التوحيد الذي يحرر العبيد من العبودية للعبيد .. فيخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. وبالتالي فإن أسوأ وأخنع وأقبح مفهوم حضاري سلبي على الإطلاق هو مفهوم الشرك؛ الذي يُعبّد العبيد للعبيد، والذي يحمل المرء على أن يتخذ أنداداً وشركاء يعبدهم ويطيعهم، ويحتكم إليهم، ويضحي في سبيلهم من دون الله ﷻ .. الشرك الذي يُقسّم المجتمعات ـ كل المجتمعات التي لا تخضع لسلطان الله تعالى وشرعه ـ إلى طبقتين: طبقة الأسياد والأرباب .. وطبقة العبيد لهؤلاء الأسياد والأرباب .. وعلى هذا المفهوم الحضاري مدار الخلاف والصراع ـ على مدار التاريخ كله ـ بين أهل التوحيد من جهة، وبين أهل الشرك والباطل بكل أطيافهم وتجمعاتهم ومسمياتهم من جهة أخرى.

هذا الخلاف حول هذا المفهوم الحضاري (التوحيد) أدى إلى خلاف حول مفاهيم حضارية أخرى مرتبطة به؛ كمفهوم " الحرية " مثلاً؛ هل هي مطلقة أم مقيدة، وما هي المساحة المسموح بها، والمساحة الممنوعة، ومن هي الجهة التي تحدد نسبة هذه الحرية .. وكذلك مفهوم السيادة العليا في الأرض لمن تكون؛ من الحاكم، من له الأمر فيُطاع، من له خاصية التشريع والتحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح؛ للخالق أم للمخلوق .. لله تعالى وحده أم لعبد الله .. وكذلك القيم الحضارية ذات العلاقة بتحديد خصوصيات وحقوق الخالق ﷻ وخصوصيات وصلاحيات الإنسان، وحقوقه وواجباته .. فهذا النوع من القيم محل تنازع واختلاف بين أمة الإسلام أو الحضارة الإسلامية، والحضارات الأخرى بكل مسمياتها وصورها .. وانتماءاتها .. وهذه مسألة سنعود إليها ـ إن شاء الله ـ بشيء من التفصيل عند الحديث عن أوجه الخلاف بين القيم الحضارية للحضارة الإسلامية، والقيم الحضارية للحضارات الأخرى.

فإن عُلِم هذا الذي تقدم يُقال: عندما يتصرف المرء بطريقة صحيحة راقية أخلاقية ومسؤولة .. يُقال عنه هذا إنسان متحضر .. وإذا تصرف بطريقة خاطئة، متخلفة، غير أخلاقية ولا مسؤولة .. يُقال عنه هذا إنسان متخلف .. همجي .. غير متحضر.

فالسلوك الإنساني .. أيّاً كان نوعه .. وكانت نتائجه .. ليس هو الحضارة .. وإنما هو عبارة عن نتاج المفاهيم والتصورات الحضارية التي ينتمي إليها هذا الإنسان ويعتقد بها .. والتي

أفرزت عنده هذا السلوك .. فإن كان سلوكاً إيجابياً ممدوحاً فهذا دليل على وجود قيم حضارية إيجابية وممدوحة عند هذا الإنسان .. وإن كان سلوكاً سلبياً مذموماً فيكون ذلك دليلاً على عدم وجود قيم حضارية إيجابية معتبرة عند هذا الإنسان .. وإنما يكون دليلاً على وجود قيم وأخلاقيات متخلفة غير متحضرة ولا راقية .. فالسلوك الإنساني ـ اياً كان نوعه ـ هو التعبير الصادق عن نوعية ومدى جودة تلك القيم الحضارية التي ينتمي إليها الإنسان.

فالإنجاز العلمي التجريبي ـ قديماً وحديثاً ـ يشترك فيه جميع بني البشر .. وأسبابه مبذولة للجميع .. وبالتالي فهو ليس دليلاً ولا مقياساً على تحضر أو حضارة شعب من الشعوب .. وإنما هو دليل على وجود جزء من تلك المفاهيم والقيم الحضارية التي ينتمي إليها ذاك الشعب أو غيره .. ألا وهي قيمة الاهتمام والحرص على العلم التجريبي التطبيقي .. التي أفرزت إنجازاً علمياً.

فالآلة المصنَّعة .. مهما كانت ضخمة وهامة ومتطورة .. ليست هي الحضارة .. وإنما المفاهيم والقيم والتصورات .. التي كانت سبباً في وجود هذه الآلة .. والتي تحكم وتحدد الطريقة التي تُستخدم بها هذه الآلة .. هي الحضارة وهي التحضر، ومن خلالها يُحكم على صاحبها بالتحضر أم لا أو كم هي نسبة التحضر التي يتحلى بها!

فالذي يُصنِّع سلاحاً متطوراً وفتاكاً مدمراً .. لكي يستخدمه لأغراض الشر والفساد والتخريب والدمار في الأرض .. ولأغراضه الشخصية الذاتية أو الحزبية الضيقة .. فهذا رغم ملكه لهذا السلاح الفتاك وتصنيعه له .. فهو إنسان غير متحضر .. لا يُمكن أن يُنسَب إلى الحضارة والتحضر في شيء .. ولو نُسب مجازاً فهو يُنسب إلى حضارة متخلفة همجية غير راقية .. ولا إنسانية!

فهذا الذي يصنِّع مثلاً قنبلة ضخمة فتاكة .. ليقتل بها الأطفال والنساء، وغيرهم من الآمنين ممن صان الشرع حرماتهم .. وليدمر البيوت على رؤوسهم .. فهذا رغم تصنيعه لهذه القنبلة الضخمة لا يُمكن أن يُصنَّف بأنه إنسانٌ متحضر أو يُوصَف فعله هذا بالتحضر والرقي، أو أنه ينتمي إلى قيم حضارية راقية معتبرة!

الإنسان الذي ينتهج مبدأ الغايات تبرر الوسائل؛ مهما كانت هذه الوسائل قذرة وسيئة ومتخلفة .. لا يُمكن أن يُعتبر متحضراً ولا راقياً مهما كان متقدماً في الصناعات والتطاول في البنيان والعمران .. ومهما جنت عليه تلك السياسة من أرباح مادية!

نقول ذلك لأن كثيراً من الباحثين فضلاً عن غيرهم يقيسون الحضارة والتحضر بمدى الإنجاز والتطور العلمي، ويظنون أن آلات التصنيع المتقدمة .. والتطاول في العمران .. التي

يتمتع بها مجتمع من المجتمعات هي الحضارة ذاتها .. وهي دليل على تحضر ورقي ساكني هذه المجتمعات .. وهذا خطأ فاحش شائع لا بد من تصحيحه وتداركه![٢].

المجتمع النبوي الأول في المدينة المنورة لم يكن يعرف التطاول في العمران والبنيان، ولا الصناعات الضخمة والمتطورة .. ومع ذلك فهو أعظم المجتمعات رقياً وتحضراً عرفها التاريخ من قبل وإلى يوم القيامة؛ لأنه كان قائماً على مجموعة من المفاهيم والقيم الحضارية الراقية النبيلة التي لا توازيها .. ولا تُقاومها قيم ومفاهيم حضارية أخرى في أي موضع أو زمانٍ آخر .. سرعان ما أعطت نتائجها، وانعكست آثارها الإيجابية على العالم أجمع، وفي سنوات معدودات .. فغيرت وجه التاريخ كله من أظلم صورة يُمكن أن تُعرَف إلى أشرق وأعدل وأعظم صورة عرفتها البشرية[٣].

* * * * *

ـ وجود الصراع بين الحضارات.

من خلال هذا الذي تقدم نقول: الصراع بين الحضارات قائم وموجود لا مجال لنكرانه، وهو في حقيقته صراع بين المفاهيم والتصورات والقيم والمبادئ .. والعقائد .. المتناقضة المتضاربة .. والتي تحدد معالم وطريقة الحياة لكل حضارة أو أمة من تلك الحضارات أو الأمم.

هو صراع وتدافع بين مفاهيم وقيم الشر والظلم والطغيان وأتباعها من جهة وبين مفاهيم وقيم الخير والحق والعدل وأتباعها من جهة أخرى.

هو صراع بين التوحيد وأهله من جهة، وبين الشرك والكفر والإلحاد وأهله من جهة أخرى.

هذا النوع من الصراع والتدافع بين الحق والباطل .. بين التوحيد والشرك .. وبين العدل والظلم .. وبين الفساد والدمار وحب السلام والإعمار .. وبين أهل هذا الفريق وأهل الفريق الآخر .. هو المراد من صراع الحضارات .. وهذا النوع من الصراع قائم وموجود منذ أن خلق الله تعالى إبليس .. وآدم عليه السلام .. وجعل أحدهما عدواً للآخر .. ومنذ أن قدر وجود الخير والشر في

---

[٢] الإنجاز العلمي والتصنيعي العسكري الذي حققته ألمانيا في عهد " هتلر "، كان يُضاهي إنجاز مجموع الدول الغربية مجتمعة .. ولكن لما استخدم " هتلر " ونظامه الفاشي .. هذا الإنجاز .. وهذا التصنيع العسكري الضخم .. استخداماً سلبياً خاطئاً .. ووضعه في غير موضعه الصحيح .. صُنف على أنه عنصري ومتخلف .. ومن أعداء الحضارة والتحضر!

[٣] أزعم أن أرقى وأعظم دولة حضارية عرفها التاريخ .. وإلى قيام الساعة .. كانت دولة المدينة المنورة في العهد النبوي الشريف .. بقيادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .. وأنا على استعداد تام لمناظرة كبار المخالفين لنا في هذه المسألة ممن يهتمون بدراسة الحضارات .. من ذوي الاتجاهات والانتماءات الأخرى!

الأرض .. وجعل لكل منهما أهلاً وأنصاراً .. بل في النفس الواحدة للإنسان نجد أن الله تعالى قد قدر فيها نوازع الخير ونوازع الشر معاً .. وخلق في الوجود المتناقضات والأضداد .. وسيبقى هذا الصراع بين الأضاد والمتناقضات ما شاء الله تعالى .. وإلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها .. لا يمكن أن تستقيم الحياة في الأرض ولا أن تسلم من الدمار والخراب من دونه .. ولا أن تنجو السفينة من الغرق والهلاك من دونه .. وهي سنة ماضية من السنن التي خلق الله تعالى عليها الكون والحياة .. لا راد لها .. ولا سبيل لإيقافها!

هؤلاء الذين يتشبعون بما لم يُعطَوا فيزعمون أنهم يريدون إيقاف صراع الحضارات .. يُقال لهم: أوقفوا إبليس وجنده عن الكيد والتآمر، والفتنة، والفساد في الأرض إن استطعتم .. ضعوا نهاية لإبليس وجنده من شياطين الإنس والجن إن استطعتم .. فإن لم تستطيعوا ولن تستطيعوا .. فكيف تستشرفون مهمة إيقاف صراع الحضارت .. وأنتم تعلمون أن حضارات معاصرة كاملة قائمة على عبادة الشيطان، وعلى حكم وشرع وقيم الشيطان .. وعلى القتال دون قيم وشرائع الشيطان؟!

هذه حقيقة ساطعة ظاهرة قد دلت عليها جميع الأدلة النقلية والعقلية والواقعية .. لا خفاء فيها ولا غموض، لا مجال لنكرانها أو تجاهلها أو إلغائها .. بل ينبغي التسليم بها .. عند حصول أي عملية تدافع وصراع وتنافر بين الحضارات أو بين قوى الخير والشر .. أو بين جند الله من جهة وجند الشيطان من جهة أخرى، كما قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء ٱلشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ النساء:٧٦. فهذا القتال والتدافع قائم ـ شئنا أم أبينا ـ وكل فريق منهما ماضٍ إلى سبيله وغايته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[٤].

* * * * *

---

[٤] هذا الصراع والتدافع ليس محصوراً وحسب بين ملتين أو أمتين متباينتين حضارياً كل التباين فيما بينهما .. بل قد يمتد ليشمل فرقاء ينتمون إلى ملة أو أمة واحدة .. لكن يوجد فيما بينهم قدراً من التباين في المفاهيم الحضارية التي ينتمي إليها كل فريق من الفرقاء فيحصل فيما بينها الصراع .. كالصراع الدامي بين طائفتي البروتستانت والكاثوليك .. والصراع بين الكوريتين الجنوبية والشمالية: الجنوبية تنتمي إلى القيم الحضارية الغربية الديمقراطية .. بينما الشمالية تنتمي إلى القيم الحضارية الاشتراكية الشيوعية .. علماً أن الكوريتين ينتميان إلى قومية واحدة .. ولغة واحدة .. ويتجانسون فيما بينهم في كثير من الخصائص .. وهكذا كل صراع دائر ويدور إذا أردنا أن نفهمه جيداً لا بد من أن نرده إلى بعده الحضاري وننظر إليه من زاويته الحضارية!

ـ الأدلة النقلية على وجود الصراع بين الحضارات.

هذا الصراع والتدافع ابتدأ ـ كما ذكرنا من قبل ـ منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام وأبان له ولذريته أن إبليس ـ وكل من يدخل في حزبه وجنده من شياطين الإنس والجن ـ هو عدوهم؛ ليحذروه ويجتنبوه ويتخذوه عدواً، كما قال تعالى:﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا ﴾ أي إبليس ﴿ عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾طه:١١٧. وقد نهاه ربه ـ لحكمة يشاؤها ـ عن أن يأكل من شجرة محددة من شجر الجنة، كما قال تعالى:﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾الأعراف:١٩. إلا أن عدوه إبليس أبى إلا أن يمكر ويكيد عسى أن يحمل آدم على المخالفة والمعصية فيشقى:﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾طه:١٢٠. وفي سورة الأعراف:﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾الأعراف:٢٠. فحصل الإصغاء من آدم لموعظة ونصيحة عدوه إبليس .. فأكل من الشجرة ووقع في العصيان والشقاء والبلاء والعذاب وحصل الهبوط إلى الأرض .. لتستمر العداوة ويستمر الصراع والتدافع بين حضارة إبليس وجنده وقيمهم الباطلة الفاسدة الظالمة من جهة وبين حضارة الإيمان التي تنشأ على أيدي من آمن بالله تعالى من ذرية آدم واتبع المرسلين، كما قال تعالى:﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ طه:١٢١. وقال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾البقرة:٣٦. وفي سورة الأعراف:﴿ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾الأعراف:٢٤. وقال تعالى:﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾طه:١٢٣. وقال تعالى:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾فاطر:٦.

هكذا كان ـ منذ القدم ـ مبدأ الصراع بين الحق والباطل .. وهكذا هو مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. فما من نبي أرسله الله تعالى ليصلح ما أفسده الشيطان وجندُه في الأرض

.. إلا ويتصدى له عدو من المجرمين المستكبرين، من أتباع وحزب الشيطان .. يصده عن دعوته وإصلاحه .. بحجة المحافظة على الدين والقيم والمفاهيم والعادات التي نشأوا وتربوا عليها .. وأن الأنبياء يدعون إلى قيم حضارية تختلف مع قيمهم ومبادئهم التي أقاموا حضارتهم على أساسها، ووجدوا آباءَهم عاكفين عليها!

كما في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾غافر:٢٦. فعلل فرعون رغبتَه في قتل موسى ﷺ ومن آمن معه في خوفه من أن موسى ﷺ يريد أن يبدل دين قوم وأتباع فرعون؛ أي يبدل طريقتهم في العيش والحياة، ويبدل مفاهيمهم، وقيمهم التي اعتادوها وتربوا عليها، والقائمة على العبودية والخدمة لفرعون وقصره .. وأنه ـ أي موسى ﷺ ـ ما أراد بذلك التغيير والتبديل إلا الفساد في الأرض .. وهي ذريعة طواغيت الأرض كلهم من قبل ومن بعد في رد الحق وتهييج الرعاع والعامة ضده .. فما من طاغية إلا وتراه يبرر جرائمه في قتال وقتل المؤمنين ـ أتباع وورثة الأنبياء والرسل ـ بأن المؤمنين من دعاة الفساد .. وأنه بقتاله وقتله لهم يريد أن يمنع فسادهم في الأرض .. وهو في حقيقته يكون رأساً في الفساد والإجرام والطغيان.

قال ابن كثير في التفسير:﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ يعني موسى؛ يخشى فرعون أن يُضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يُقال في المثل: صار فرعون مذكِّراً؛ يعني واعظاً يُشفق على الناس من موسى ﷺ ا- هـ. وما أسوأ وأقبح وأوقح من الطغاة المجرمين الآثمين عندما يرتدون ثوب الوعظ والوعاظ .. وما أكثرهم في زماننا!

وكذلك قوله تعالى:﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾طه:٦٣. فقوله﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾؛ وإن قيلت على لسان سحرة فرعون .. ويعنون بالطريقة السحر وما هم فيه من ملك وجاه ورياسة بسبب شعوذتهم وسحرهم وكفرهم .. إلا أن هذه المقولة تعتبر الذريعة الأكبر لجميع طواغيت الأرض ـ

على مرِّ جميع عصورهم ـ لرد الحق، ومحاربته، ومحاربة أهله .. إذ ما من طاغية إلا ويدعي لشعبه .. أنه ما حمله على قتال مناوئيه إلا الحفاظ على طريقتهم المثلى في العيش والحياة!

ومن صور عداء الملأ من الشعوب السالفة ما قاله تعالى عن الملأ من قوم شعيب وعن موقفهم من شعيب ﷺ ودعوته، كما في قوله تعالى:﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا

كَارِهِينَ ﴾الأعراف:٨٨. فعللوا سبب صراعهم وخلافهم مع شعيب ﵇ ومن آمن معه أنهم على ملة ودين وطريقة غير ملتهم ودينهم وطريقتهم .. وبالتالي فإن الصراع قائم ومستمر .. ولا يقف إلا بإحدى أمرين: إما بعودة شُعيب ومن آمن معه عن دينهم، والدخول في دين وملة وطريقة وتقاليد الملأ .. ومشاركتهم فيما هم فيه من فساد وضلال وانحراف .. أو الطرد والإخراج من القرية .. بحيث لا يرى أحدهما الآخر.

وهذا الذي قاله الملأ من قوم شُعيب لنبي الله شُعيب قاله الكفار المجرمون لرسل الله وأتباعهم على مرِّ التاريخ والأزمان، كما قال تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾إبراهيم:١٣. فالصراع كما هو واضح ليس حول التكنولوجيا ولا حول الصناعات .. وما يُمكن أن يخترعه الإنسان من وسائل تعينه على البناء والعمران .. وإنما على المبادئ والعقائد والملة .. والمفاهيم .. والقيم التي تحدد طريقة العيش والحياة .. والنظام الذي يحكم البلاد والعباد .. فجميع الذين كفروا عبر تاريخهم كله قالوا لجميع الرسل . عبر تاريخهم كله ومن دون استثناء . ولمن آمن معهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾، أي تدخلوا وتندمجوا في ديننا، ومفاهيمنا .. وقيمنا .. وعاداتنا .. وطريقتنا في العيش والحياة .. التي لا نرضى أن تنضبط إلا بالضابط الذي نهواه ونشتهيه.

وكذلك قوم لوط .. ما نقموا من لوط ﵇ ومن آمن معه إلا أنهم لا يأتون الرجال شهوة مثلهم .. وأنهم لا يقترفون الفواحش .. وأنهم أناس يتطهرون .. وهذا بخلاف ما هم عليه من الفسوق والفجور .. والعادات السيئة، كما قال تعالى عنهم:﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ لماذا .. ما هو السبب .. ما هي الجريمة التي ارتكبوها والتي على أساسها يستحقون الطرد والإخراج من البلاد .. ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾النمل:٥٦. وقيم الطهر والعفة لا تلتقي ولا تتعايش مع قيم الفجور والفسوق والعصيان .. لا بد من إخراج وطرد أحدهما للآخر؛ فمنظر الطهر والعفة والحشمة والحجاب يؤذي أنظار المجرمين الفاسقين؛ لأنه يذكرهم بسوء حالهم وحقيقة الدرك الذي هم فيه وعليه .. لذا كان جوابهم حاسماً قاطعاً ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾.

هذا الموقف الحاقد المتخلف للملأ من قوم لوط تجاه لوطٍ ﵇ ومن آمن معه .. يتكرر في أبشع صوره في قرننا المعاصر؛ قرن الواحد والعشرين .. يتكرر في زمن الحريات والديمقراطيات المزعومة .. وفي أكثر المجتمعات زعماً بأنها تحترم حقوق وحرية واختيار الإنسان

.. إنها السُّنَن؛ سُنن اتباع الخلَف من المجرمين الفاسقين لسلفهم الطالح من الفاسقين المجرمين..!

كم هي الدول والحكومات المعاصرة التي تزعم الرقي والتقدم والتحضر واحترام حقوق الإنسان وحرياته .. والتي تجبر النساء على خلع الحجاب .. وتمنعهن من دخول مؤسساتها وجامعاتها ومدارسها .. وهن مرتدين للحجاب .. وما موقف فرنسا وغيرها من الدول الديمقراطية من الحجاب والمتحجبات عنا ببعيد!

قالوها بكل صراحة ووضوح .. أخرجوا من قريتكم وجامعاتكم ومدارسكم ومؤسساتكم .. كل فتاة طاهرة متحجبة .. فطهرها وحجابها يؤذينا .. ويتنافى مع طريقتنا المثلى في العيش والحياة .. نعم للحرية عندما تسير في اتجاه الإباحية، والعهر، والفجور، والفسوق والعري .. ولا للحرية إن سارت في اتجاه الحشمة، والحجاب، والعفة، والطهر .. وبما لا يشتهي الفجَّار .. فالحرية حينئذٍ تكون متهمة ومحاربَة[٥].

ومن الأدلة النقلية الدالة كذلك على هذا النوع من التدافع والصراع قوله تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ البقرة:٢١٧. فبين الله تعالى أن الكفار ـ في كل زمان وإلى يوم القيامة ـ لا يزالون يُقاتلون المؤمنين .. ويمكرون ويدبرون ضدهم .. لا لشيء سوى أن يردوهم عن دينهم وعقيدتهم .. وقيمهم .. ليدخلوهم في دين وقيم الكفر والشرك والفسوق .. فهذا النوع من

---

[٥] على سبيل المثال لا الحصر، من شروط الهجرة إلى هولندا ـ كما تناولت ذلك بعض وسائل الإعلام ـ أن يُشاهد المهاجر ـ ويعنون به المهاجر المسلم ـ فلماً إباحياً خلاعياً من دون أن تظهر عليه علامات الصدمة أو الدهشة أو الاستغراب .. فإن ظهر عليه شيء من ذلك يرسب في الاختبار، ويرد طلبه، ويُطرد، ويُعاد إلى بلده .. وغرضهم من ذلك كما قالوا: أن يتأقلم المهاجر ـ وبخاصة المسلم ـ مع قيم وعادات المجتمع الهولندي!

وكذلك في الدولة الإلمانية من شروط قبول المهاجر المسلم وحتى يُسمح له الإقامة في البلد ويتجنس بجنسيتها يجب عليه أن ينجح في الإجابة عن ثلاثين سؤالاً، من هذه الأسئلة: كيف سيكون رد فعلك إذا قدم إليك ابنك الأكبر وقال إنه شاذ جنسياً، ويعتزم الإقامة مع رجلٍ آخر؟ ماذا ستفعل كأب أو أخ إذا جاءت ابنتك أو شقيقتك للمنزل وقالت إنها تعرضت لتحرش جنسي؟ ما رأيك إذا تزوج رجل في ألمانيا بامرأتين في نفس الوقت؟ هل تسمح لابنتك أن تشارك في السباحة وممارسة الرياضة مع الآخرين، وإن كان الجواب لا، فلماذا؟ هل تُفضل عيادة طبيب أم طبيبة، ولماذا؟ وغيرها من الأسئلة التي إن أجاب عنها كما يريدون ويشتهون أُذن له بأن يُقيم في بلدتهم، وإن لم يجب عنها كما يشتهون ويريدون .. يرسب في الاختبار .. ويُمنع من الإقامة في بلدتهم ويُطرد منها ... والسؤال الذي يطرح نفسه: أليس فعلهم هذا هو نفس ما فعله قوم لوط من قبل لما قالوا لنبي الله تعالى لوط عليه السلام:﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾؟!

الصراع والتدافع قائم ومستمر إلى يوم القيامة .. بنص كلام الله تعالى .. فمن رده وأراد أن يُبطله فهو يكذب الله تعالى، ويرد كلامه .. ومن يرد كلامه فقد كفر!

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾البقرة:١٠٩. فهذه الرغبة الجامحة العامرة ـ لا يمكن مواراتها أو إنكارها ـ عند كفار ومشركي أهل الكتاب؛ وهي بأن يردوا المؤمنين بعد إيمانهم كفاراً ومشركين .. وماذا يعني صراع الحضارات ـ عند المخالفين وعلى وجه الحقيقة ـ غير هذا المعنى!

كما قال تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾؛ مكر يتلوه مكر .. وكيد يتبعه كيد .. وهو ليس مكر الليل وحسب، أو مكر النهار وحسب، ثم يجد الممكور به شيئاً من الوقت يخلد فيه إلى الراحة والتأمل والتفكر .. لا؛ بل هو مكر متواصل على مدار الوقت يستغرق جميع أنفاس وأعمار الممكور بهم .. حتى لا يجدوا فرصة للتأمل ومحاسبة النفس والرجوع عن الغي والضلال .. ما غرضه، وما الغاية منه:﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾؛ هذا هو الغرض وهذا هو الهدف من مكر الليل والنهار الذي يمكرونه .. أن يكفر الناس بخالقهم .. وبالقيم والمبادئ والشرائع التي أمر الله بها وأوحاها على أنبيائه ورسله .. ويتخذوا من دونه أنداداً وشركاء يُطيعونهم ويُحبونهم كطاعتهم وحبهم لله ﷻ .. لكن يوم القيامة ينكشف الغطاء، ويُعرف المكر والماكرين، والممكور بهم .. ويقع الندم، ولات حين مندم ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سبأ:٣٣.

وقال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ الفرقان: ٣١. فقوله تعالى﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾؛ عام وشامل لجميع الأنبياء والرسل؛ إذ ما من نبي بعثه الله تعالى إلا وكان له عدو أو أعداء من المجرمين يحاربونه، ويصدون الناس عنه وعن دعوته .. وهذه العداوة مستمرة وممتدة لتشمل ورثة الأنبياء وكل من سلك على دربهم، وانتهج نهجهم من عباد الله المؤمنين .. فكل من سلك طريق ومنهج الأنبياء له نصيب من هذه العداوة من المجرمين!

وقال تعالى عن المنافقين والمنافقات:﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾التوبة:٦٧. بينما قال تعالى عن المؤمنين

والمؤمنات:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾التوبة:٧١. فهذان فريقان متناقضان متغايران؛ أحدهما يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، والآخر يأتي بعكس ذلك تماماً؛ فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .. وبالتالي فإن عملية التصادم والتدافع فيما بينهما واقعة لا محالة لا يمكن تفاديها ولا تجاهلها، والدعوة للتعايش بسلام ووئام فيما بينهما . على ما هما عليه من وصف . هو من قبيل القول بالشيء وضده في آنٍ معاً!

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾؛ أي لولا أن يدفع الله تعالى بمن يجاهد في سبيله من يجاهد في سبيل الطاغوت .. ويبغي في الأرض عوجاً وفساداً ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أي لعم الفساد والخراب في الأرض بعلو الكافرين المجرمين، وبسط نفوذهم، وقانونهم، وباطلهم وفسادهم .. ومنعهم للمؤمنين الموحدين المصلحين أن يُظهروا دينهم ﴿ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾البقرة:٢٥١. بأن أذن بالجهاد والتدافع؛ فيقذف المجرمين الكافرين وباطلهم بالمؤمنين الموحدين، كما قال تعالى:﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾الأنبياء:١٨. وقال تعالى:﴿ وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾الإسراء:٨١.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾الحج:٤٠. وهذا ملاحظ جداً .. فعندما يتخلف أهل الحق في الدفاع عن الحق .. ودفع الباطل عن باطله وعدوانه وغيه .. ويتخلفون عن الأخذ بسنة التدافع .. ويركنون إلى الدنيا .. يُسلَّط عليهم عدوهم .. ليهدم مساجدهم ومعابدهم .. ويُمنعون من أن يَذكروا اسم الله فيها .. وتُنتهك بقية حرماتهم .. وما أكثر الشواهد الدالة على ذلك .. فكم من مسجد حُوِّل على أيدي الظالمين المعتدين إلى متحف .. أو مرقص .. أو منزل لغاصب .. أو زريبة للحيوانات .. كما حصل ولا يزال يحصل في البلاد الإسلامية المحتلة من قِبل الاتحاد السوفيتي الشيوعي من قَبل .. وفي الأندلس .. وتركيا .. وفلسطين .. والشيشان .. وغيرها من البلدان!

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم "[٦]. هذا الذل يتحقق وينزل بالأمة بسبب ترك العمل بسنة التدافع، وترك الجهاد في سبيل الله.

وكذلك قوله ﷺ:" يُوشَكُ الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها "، فقال قائل: ومن قِلة نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ اللهُ من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن "، فقال: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال:" حُبُّ الدنيا، وكراهية الموت "[٧]. هذه هي نتائج ترك العمل بسنة التدافع، والركون إلى وهم تعايش الحضارات .. أن تداعى أمم الكفر والشرك والضلال على أمة الإسلام كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .. وقد حصل ذلك .. وها نحن نراه يومياً أمام أعيننا!

وقال ﷺ:" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " البخاري. وهذا مثل ضُرب لبيان أهمية العمل بسنة التدافع؛ دفع الباطل وأهله بالحق وأهله، فإن تُرك لأهل الباطل الحرية ـ تحت أي زعم كان ـ بأن يخرقوا السفينة .. ويُفسدوا في المجتمعات .. ومن دون أن ينكر عليهم أحد .. هلكوا جميعاً الصالحون والطالحون، والمذنب وغير المذنب سواء، وإن أخذوا على أيديهم بالزجر والمنع والنهي .. وإن حصل نوع صدام وآلام وجراح .. نجوا جميعاً!

قال تعالى:﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾الحج:٤١. هذا هو الغرض من التمكين؛ تمكين المؤمنين في الأرض؛ أن يفردوا الله تعالى في العبادة، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر .. فإن تعطل العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. فُقِد المبرر من التمكين .. وحصل الفساد .. وحصل الاستبدال!

وفي الأثر المشهور عن الصحابي ربعي بن عامر ﷺ عندما قال لرستم قائد جيش الفرس، بعد أن سأله الآخر عن السبب من وراء خروجهم لقتال فارس:" لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من

---

[٦] أخرجه أحمد، وأبو داود، وغيرهما، السلسلة الصحيحة: ١١.

[٧] أخرجه أبو داود وغيره، السلسلة الصحيحة: ٩٥٨.

عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ". هذه هي مبررات وغايات التمكين والصراع عند المسلمين؛ فهم لا يعرفون أطماعاً خاصة ولا شخصية .. كما هو الحال عند الآخرين .. بل هدفهم الأسمى تحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. ليعيشوا جميعاً في سلم وسلام وعدل الإسلام أحراراً.

* * * * *

ـ الأدلة العقلية على وجود الصراع بين الحضارات.

فإن قيل: قد تناولت موضوع سنة التدافع والصراع بين الحضارات، أو بين الحق والباطل من وجهة نظر النصوص الشرعية وحسب .. فهلاَّ أشرت للأدلة العقلية .. وكذلك الادلة الواقعية المُشاهدة الدالة على ما تقدم ذكره وبيانه في النصوص والنقولات الشرعية؟

أقول: لا تعارض بين العقل والنقل .. فما يقرره النقل الصحيح يوافقه العقل السليم ولا بد؛ فالعقل يقضي باستحالة تعايش الشيء وضده في آنٍ ومكانٍ معاً، وإقرار كل منهما للآخر طواعية .. كتعايش الحق والباطل .. والتوحيد والشرك .. والإيمان والكفر .. والفضيلة والرذيلة .. والطهر والنجاسة .. والوفاء والغدر .. والأمانة والخيانة .. والصدق والكذب .. والظلم والعدل .. والفساد والإصلاح .. والتخريب والإعمار .. لذا كان لتحقيق التعايش بينهما لا بد من أن يعمل كل طرف منهما على أطر الطرف الآخر إلى ساحته وقوانينه وطريقته ومنهجه .. وهذا لا يتحقق إلا إذا تخلى كل طرف منهما عما يتصف به من خصال وخلال لصالح الطرف الآخر .. لكن طرف الحق ـ مهما حاول أهل الباطل واجتهدوا ومكروا مكراً كبَّاراً ـ لا يمكن أن ينصاع للباطل وقوانينه وطريقته ومنهجه في هذه الحياة .. ولا الباطل ـ بكل صنوفه وجيوشه وطوائفه ومذاهبه ـ يرضى كذلك أن ينصاع طواعية للحق .. مع قدرته على المحافظة على باطله وطغيانه وظلمه، ومصالحه الذاتية وما عُرف عنه من خِلالٍ مشينة .. من هنا تأتي الضرورة الملحة لعملية التدافع والصراع بين المنهجين والتيارين .. وهذا الذي يُعرَف اليومَ بصراع الحضارات .. حضارة الحق وأهله من جهة وحضارة الباطل وأهله بكل جيوشهم وتياراتهم ومذاهبهم من جهة أخرى!

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" عجبت لأقوام يُساقون إلى الجنة في السلاسل ". وفي رواية:" رأيت ناساً من أمتي يُساقون إلى الجنة بالسلاسل، ما أكرهها إليهم! قلنا من هم؟ قال: قوم من العجم يسبيهم المهاجرون فيدخلونهم الإسلام "[٨].

---

[٨] السلسلة الصحيحة: ٢٨٧٤. وقوله " فيدخلونهم الإسلام " أي طواعية لا إكراهاً .. إذ لا إكراه في الدين .. لكن القيد والسلاسل والأسر كان سبباً لهم في التعرف على عظمة وأخلاق الإسلام .. ومن ثم الدخول فيه

بل هذا التدافع بين الفريقين نجد أمثلة عدة تدل عليه؛ حتى في النفس البشرية الواحدة يوجد فيها ما يدل على هذا الصراع والتدافع، فكل امرئٍ فيه نفس أمارة بالسوء تأمر صاحبها بالمنكر والشر، كما قال تعالى:﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾يوسف:٥٣. ونفس لوامة تلوم صاحبها على فعل المنكر وتنهاه عنه .. وهي النفس الرادعة، كما قال تعالى:﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾القيامة:٢. وكلتا النفسين في المرء تعتلجان وتتصارعان وتتدافعان وتتجاذبان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى .. فيجد المرء نفسه مشدوداً إما لفعل الخير وإما لفعل الشر؛ بحسب لمن تكون الغلبة .. أو تكون الأقوى.

كذلك الإيمان في القلب فإنه في صعود وهبوط مستمر، بحسب الطوارئ والأعمال التي يقوم بها الإنسان؛ فإن عمل خيراً ازداد إيمانه وقوي بقدر عمله، وإن عمل شراً نقص إيمانه وضَعُف بقدر عمله.

حتى الدمَ في جسد الإنسان فيه ـ ما هو معلوم للجميع ـ كرياتٌ تُسمى بكريات البيض؛ هذه الكريات تمثل جهاز المناعة عند الإنسان، وظيفتها مهاجمة الجراثيم والأدواء إذا ما داهمت جسد الإنسان، والقضاء عليها .. فإن غلبت هذه الكريات الجراثيم الدخيلة .. قوي جسد الإنسان واشتد عوده .. وعادت إليه عافيته .. وإن ضعفت هذه الكريات في المقاومة .. وكانت الغلبة للجراثيم الوافدة .. فحينئذٍ يضعف الجسد وينهار ويمرض، ويموت .. هذا الصراع والتدافع بين الأضاد والمتناقضات نجد عليه أمثلة عدة في كل جزئية من جزئيات حياتنا.

* * * * *

ـ أدلة الواقع على وجود الصراع بين الحضارات.

أما أدلة الواقع الدالة على هذا النوع من الصراع والتدافع بين الحضارات أو بين الأمم والشعوب فحدث عنها ولا حرج؛ فهي أكثر من أن تُحصَر في هذا الموضِع، بل أكاد أجزم أن ما من صراع يحدث في العالم إلا ولهذا البعد في الصراع الدور الرئيس والأساس.

وأنا هنا لا أريد أن أستقرئ التاريخ البعيد لأستخرج منه الأحداث الدالة على هذا النوع من التدافع والصراع، وما أكثرها لو فعلت ـ حتى لا يقول القارئ هذا تاريخ قديم لا حجة فيه، ونحن اليوم نعيش في عصر مختلف؛ عصر الانفتاح والعولمة والتحرر، والديمقراطية .. والتعايش والسلام .. والقانون الدولي .. وهو عصر يختلف كثيراً عن العصور السالفة للآباء أو الأجداد التي

طواعية .. مما أدى بهم إلى دخول الجنة، فرب ضارة نافعة .. وما أكثر ما يتكرر ذلك في واقعنا، هكذا ينبغي أن يُفهم الحديث، وعلى هذا المحمل ينبغي أن يُحمل.

يسودها العنف والتعصب. وإنما أريد أن أتناول بعض الأحداث والوقائع التي حصلت في واقعنا المعاصر والمعايش التي لا تزال آثارها جاثمة على صدور العباد .. شاخصة لذوي الأبصار .. والتي لا تخفى على أحدٍ من الناس مهما كان مصاباً بداء الجهل أو النسيان!

من ذلك ما حصل ولا يزال يحصل في فلسطين من اغتصاب للحقوق والأرض، وانتهاك للحرمات، وتقتيل وتدمير للبيوت على رؤوس الآمنين من ساكنيها .. وحصار وتجويع للنساء والأطفال .. وتواطؤ دولي صليبي مع المجرمين الصهاينة اليهود فيما يرتكبونه من جرائم .. هل كان سيحصل شيء من ذلك لو كان الشعب الفلسطيني نصرانياً أو بوذياً أو ينتمي لأي دين غير دين الإسلام .. وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية .. ستقف من تلك الجرائم والاعتداءات .. نفس الموقف الذي تقفه الآن؟!

لماذا كل هذا التغاضي والتعامي. من قبل أمريكا ومعها دول الغرب. عما يفعله ويرتكبه الصهاينة اليهود في فلسطين وغير فلسطين من عدوان .. بينما لو فعل المسلمون الفلسطينيون أو غيرهم جزءاً يسيراً من ذلك. من قبيل المعاملة بالمثل، ولاسترداد اليسير من الحقوق المغتصبة. لقامت الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية تهدد وتشجب وتستنكر .. وتتباكى على حقوق الإنسان .. وتتكلم عن وحشية المسلمين؟!

لماذا .. وما هو التفسير الصحيح لهذه الظاهرة؟!

كذلك ما حصل ولا يزال يحصل في أفغانستان من تدمير وتقتيل، وعدوان .. على أيدي الغزاة الأمريكان وحلفائهم .. هل كان سيحصل شيء من ذلك لو كان الشعب الأفغاني نصرانياً .. أو ينتمي إلى دين غير دين الإسلام .. وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية .. ستقف منه نفس الموقف الذي تقفه الآن؟!

هل لو كانت دولة الطالبان دولة علمانية .. تسير في ركاب السياسة والإرادة الأمريكية والغربية .. كانت ستُعَامل المعاملة التي عُومِلت به؟!

ما الذي حمل أمريكا ومعها دول الغرب على غزو أفغانستان .. وإسقاط دولة لها كامل السيادة والنفوذ على البلاد .. لتستبدلها بقوة السلاح بدولة عميلة تحكمها شلة من العصابات وقطاع الطرق .. وتجار الحشيش والمخدرات؟!

كذلك ما حصل ولا يزال يحصل في العراق .. من حصار، وغزو، وتدمير، وقتل، وانتهاك لجميع الحرمات .. هل كان سيحصل شيء من ذلك لو كان الشعب العراقي نصرانياً أو ينتمي إلى أي دينٍ غير دين الإسلام .. وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية .. ستقف منه نفس الموقف الذي تقفه الآن؟!

ما حصل ولا يزال يحصل في الشيشان من جرائم ومجازر .. هل كان سيحصل شيء منه لو كان الشعب الشيشاني نصرانياً أو ينتمي إلى أي دينٍ غير دين الإسلام .. وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية .. ستقف منه نفس الموقف الذي تقفه الآن .. وهل كانت ستؤيد روسيا على استعمارها للبلد وأهله .. وتغض الطرف عما ترتكبه من جرائم بحق الآمنين العزَّل؟!

لماذا أمريكا ومعها الغرب الصليبي وقفت بقوة مع جورجيا النصرانية .. ومع استقلالها .. ضد روسيا .. إلى أن أجبرت روسيا على الانسحاب من جورجيا .. بينما المسلمون في الشيشان لا بواكي لهم .. الجميع طواطأ مع الجلاد الروسي عليهم؟!

كذلك ما حصل من مجازر جماعية . على أيدي نصارى الصرب بتواطئ من نصارى الغرب . بحق عشرات الآلاف من المسلمين الآمنين المدنيين في البوسنة والهرسك .. وفي كوسوفو .. تقشعر منها الأبدان .. لا تزال إلى الساعة تتكشف بعض حقائقها الإجرامية الوحشية .. هل لو كان الضحاية من النصارى أو غير المسلمين .. كانت أمريكا ومعها الغرب الصليبي الديمقراطي سيسمحون بحصول شيء من ذلك .. وهل كانوا سيكتفون بالشجب أو بمحاسبة بضعة أفراد من الجناة .. بالسجن لبضع سنوات مع توفير كامل الخدمات الترفيهية لهم طيلة فترة محكوميتهم .. كما حكمت بذلك محاكم وحيدة العين الدولية في لاهاي!

هل لو كان المعتقلون في سجن جوانتنامو .. أو أبو غريب .. من النصارى أو أي ملة غير ملة الإسلام .. كانت أمريكا ستعتقلهم في أزرى صورة ومعاملة كما هو الحال الآن .. وهل كانت الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية ستسكت وتصمت صمت أهل القبور عن هذا الجرم الإنساني الذي لن ينساه التاريخ .. كما تسكت وتصمت الآن!

لماذا تيمور الشرقية النصرانية الكاثوليكية .. مدينة الصلبان .. تحظى باستقلالها التام عن إندونيسيا المسلمة .. ويعترف بها المجتمع الدولي . من غير جدال ولا نقاش . كدولة مستقلة .. بينما فلسطين .. وكشمير .. والشيشان .. رغم عقود من الجهاد والتضحيات .. والمطالبة بالاستقلال عن الغزاة المحتلين .. لا يحظون بالاستقلال .. ولا يلقون من المجتمع الدولي أدنى اهتمام أو اعتراف أو مساعدة .. بل العكس تماماً؟!

لماذا هذا التضامن والتفاعل الكبيرين والظاهرين من المجتمع الأمريكي والغربي مع قضية جنوب السودان النصراني .. وحمل الحكومة السودانية على الانصياع لطلبات ورغبات نصارى الجنوب .. والتي منها تغييب الهوية الإسلامية للسودان؟

لماذا عندما استتب الأمن والأمان في الصومال على يد المحاكم الإسلامية .. قامت أمريكا ومعها الغرب الصليبي .. ليحركوا ذنبهم في أثيوبيا الصليبية .. ويأمروه بغزو الصومال .. وارتكاب المجازر بحق المدنيين .. مع ضمان تأمين الغطاء الدبلوماسي .. والاقتصادي، والإعلامي من قبل المجتمع الدولي!

لماذا هذا الموقف المتواطئ من قبل أمريكا ودول الغرب الصليبي مع الهند .. ضد كشمير .. وضد الشعب المسلم الكشميري الذي ينشد الاستقلال منذ عقود .. ولم يحظ عليه؟!

لماذا أيما شعبٍ مسلم ـ وفي أي بقعة من بقاع الأرض ـ مجرد أن ينشد حكماً إسلامياً .. أو يُطالب بأن يحكمه الإسلام .. دينه الذي يعتقده .. أو يفكر بمشروع نهضويٍّ إسلامي يرتد على الأمة بالخير .. يُصادمه مباشرة الفيتو الأمريكي والغربي النصراني الديمقراطي .. والقصف الأمريكي الغربي .. والحصار الأمريكي الغربي .. ليحيلوا بينه وبين رغبته تلك؟!

لماذا مجرد الحلم والتفكير في قيام دولة إسلامية تحكم بشرع الله تعالى .. يعتبر جرماً .. وخرقاً للقوانين؟!

لماذا كل الشعوب والملل ـ كما هو الواقع ـ لها كامل الحق في أن تقيم دولة تمثلها وتمثل ثقافتها وعقيدتها .. بينما المسلمون ليس لهم دولة تمثلهم وتمثل ثقافتهم ودينهم .. وتتكلم باسمهم؟!

لماذا هذه الحساسية الزائدة من حجاب المرأة المسلمة .. إلى درجة الانتقام ومنعها من الحجاب بقوة السلطة والقانون كما حصل ولا يزال يحصل في فرنسا الديمقراطية وغيرها من البلدان ..؟!

لماذا هذا التعاطف والتعاون .. والدعم والتأييد .. لكل ما هو غير إسلامي .. بينما الإسلامي يُحارَب .. ويُسجن .. ويُقتَّل .. وتُنتهك حرماته كلها .. ولا بواكي له .. بل الكل يتقرب إلى الكل بالاعتداء عليه، والسطو على حرماته وحقوقه؟!

لماذا هذه الحرب الشعواء لكل نشاط أو جهد أو عمل إسلامي خيري .. باسم محاربة الإرهاب والإرهابيين زعموا .. بينما برامج ونشاطات غيرهم المتنوعة والمختلفة .. التي تصب في الاتجاه المضاد للإسلام .. ورغم أنهم مجرمون وإرهابيون حقيقيون .. ومن برامجهم أن يُمارسوا المحظور المتفق عليه .. ومع ذلك فإنهم يمرحون ويسيحون .. ولهم كامل الحرية والحقوق؟!

لماذا هذا التواطؤ على دم المسلم في كل مكان .. من غير أدنى إنكار ولا امتعاض .. وكأنه أرخص من المياه الملوثة في المستنقعات .. والتي منها الدم الذي سُفك على يد الجيش التايلندي الوثني .. حيث قَتلوا بدمٍ باردٍ أكثر من مائة مسلم في جنوب البلاد .. وفي بيت من

بيوت الله .. وكذلك المجازر الجماعية التي ارتكبها النصارى الصليبيون مؤخراً في نيجيريا بحق المسلمين حيث قتلوا أكثر من " ٧٠٠ " مسلم .. ومن دون أن ينكر أو يعترض عليهم أحد .. ومن آخر المجازر التي ارتكبت بحق المسلمين مجازر الصهاينة اليهود بحق المسلمين في غزة الصبر والرباط .. حيث قتلوا . براجمات صواريخهم ودباباتهم وطائراتهم . ما يزيد عن ثلاثة آلاف مسلم أكثرهم من الأطفال والنساء؟!

لماذا هذه الحملة المسعورة على مناهج التدريس في بلاد المسلمين .. رغم ما ينتاب هذه المناهج من قصور، وانحراف، وتحلل .. نزولاً عند رغبة أمريكا وحلفائها من دول الغرب الصليبي الديمقراطي؟!

لماذا ما من غزوة يغزوها الرئيس الأمريكي بوش الصليبي . ومعه حلفاؤه من دول الغرب النصراني الديمقراطي . إلا ويعلن أن غايته من ورائها .. نشر ثقافة الديمقراطية الإباحية .. على الطريقة الأمريكية والغربية .. وأنه لا يقبل نظاماً ولا ديناً ولا منهجاً ولا طريقة للعيش والحياة سوى الديمقراطية وفق المفهوم الأمريكي الغربي .. مهما كان الثمن باهظاً .. ولو أدى ذلك إلى إبادة شعب بكامله .. وإزالة دول .. وتدمير مجتمعات .. كما فعل ولا يزال يفعل في أفغانستان والعراق .. وغيرهما من البلدان؟!

هذا التواطئ في التطاول على سيد الخلق صلواتُ ربي وسلامه عليه، بالسب، والطعن، والاستهزاء .. من قِبل الغرب الديمقراطي الصليبي .. ومن قِبل وسائل إعلامه .. واعتبارهم أن حرية الطعن والتهكم، والاستهزاء بالله وآياتِه ورسولِه .. هو من صميم قيمهم الحضارية .. التي لا يمكن أن يعتذروا أو يتراجعوا عنها!

لماذا .. لماذا .. لماذا .. ولو أردنا أن نعدد " لماذا " لسودنا عشرات الصفحات؟!

الجواب يعرفه الجميع: وهو أن الدافع لهذا كله هو البعد الديني .. الثقافي .. العقائدي .. الطائفي .. الصليبي .. عند القوم .. هي الرغبة الجامحة في أن يُطفئوا نور الله في الأرض .. هو الحقد والبغض والكراهية العامرة في صدورهم لدين الله تعالى وما أنزله على رسوله الكريم ﷺ ..الذي تسميه بعض القنوات الفضائية .. وكذلك بعض المثقفين . على استحياء . بالدافع أو الصراع الحضاري .. للتخفيف من وطأة الحقيقة؟!

الدافع .. هو خوفهم الشديد من الإسلام؛ لعلمهم أنه دين الله .. وأن دين الله لا يُغالَب ولا يُحارَب .. وأنه ظاهر على من ناوأه .. وأنه يغلب من غلبه ولو بعد حين .. وأنه محفوظ ومنصور .. ولو كره الكافرون المجرمون!

ولعلمهم أن الإسلام حق .. وهو قوةٌ متحركة بذاتها يغزو القلوب والعقول قبل أن يغزو الديار والأوطان .. فكيف إذا ضم إلى قوته الذاتية القوة المادية التي يُحطم بها عروش الطواغيت الظالمين .. ويزيل بها السدود والحدود التي تحيل بينه وبين الناس .. ويُنصف المظلومَ من الظالم .. ويخرج العباد من عبادة العباد غلى عبادة رب العباد؟!

الإسلام في هذا الزمان .. لا يملك دولة .. ولا سلطة سياسية نافذة .. تتبناه وتُدافع عنه .. ومع ذلك فهم يخشونه .. ويصنفونه العدو الأول الذي يتهدد الحضارة الغربية الماجنة والمتفسخة .. والحضارات الوثنية الأخرى!

إذا لم تكن أفعالهم المشينة هذه تُصنَّف في خانة صراع الحضارات .. فما هو صراع الحضارات إذاً، وما هي الأعمال التي يُمكن أن تُصنف على أنها تدخل في خانة ومعنى صراع الحضارات؟!

المسألة بالنسبة لنا نحن المسلمين واضحة جداً قد بينها لنا ربُّنا أحسن بيان، وفصلها أفضل وأوضح تفصيل، كما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾المائدة:٥١. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾الأنفال:٧٣. وقوله تعالى:﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾البقرة:٢١٧. وقوله تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾النساء:٧٦. فأيما حدث أو صراع بين الحق وأهله من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى بكل تجمعاتهم ومذاهبهم ومناهجهم المختلفة .. فنحن نفسره ونفهمه على ضوء هذه الآيات الكريمات .. وليس لنا غير ذلك .. وأيما تفسير للأحداث يخرج عما دلت عليه تلك الآيات الكريمات أعلاه .. فهو تفسير خاطئ .. ومردود .. غير واقعي .. لا يستحق المداد الذي يُكتب به!

فالقضية بالنسبة لنا واضحة المعالم لا تحتاج إلى علوم سياسية .. ولا إلى مزيد من التحليلات والدراسات .. والأبحاث .. ولا إلى تلك التخصصات العلمية المعقدة .. كما أننا لا نحتاج إلى براهين الواقع ولا غيرها لكي نصدق أن الكافرين بكل أطيافهم ومذاهبهم المختلفة لا يمكن إلا أن يكونوا ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ على المؤمنين الموحدين .. ولكن فريقاً من بني جلدتنا .. يتكلمون بألسنتنا .. يُعرفون ـ زوراً ـ بالتنور والعقلانية .. والانفتاح .. والتحرر ..

يشككون في هذه الحقيقة المطلقة .. والتي هي سنة من سنن الكون والحياة .. ويُطالبون بإيقاف صراع الحضارات كما يحلو لهم أن يسموه .. فنضطر إلى أن نستدل عليهم بالأدلة والبراهين العقلية والواقعية المشاهدَة كما تقدم .. ليقتنعوا .. أو ليخرسوا!

يريدون أن يوقفوا صراع الحضارات من طرف واحد فقط، من طرف المسلمين، المستضعفين المعتدى عليهم، وعلى حرماتهم وحقوقهم وبلدانهم .. بينما الطرف الآخر بكل أطيافه وتجمعاته ودوله بقيادة راعية الإرهاب العالمي أمريكا .. ومعها دول الغرب الصليبي الديمقراطي المتحضر كما يزعمون .. لم يتوقفوا عن العدوان .. ولا عن الصراع .. ولا عن الغزو لحظة واحدة .. فهم في تمدد وتوسع مستمر حتى أنهم أصبحوا يتحكمون بثروات وخيرات بلاد المسلمين .. وهم لا يترددون أن يتدخلوا بطريقة طعامنا وشرابنا، ولباسنا .. وطريقة حديثنا وحياتنا .. فقد تدخلوا في كل شيء من حياتنا الخاصة والعامة سواء!

الطرف الآخر العدو مستمر في العدوان والغزو .. مستمر في تغذية الصراع .. والأحقاد والكراهية .. وتعزيز التفرقة بين الشعوب .. لم يتوقف ساعة واحدة .. وفي المقابل تجد دراويش المثقفين من بني جلدتنا ينادون ويُطالبون الضحية من المسلمين بالصبر .. والخنوع .. والذل .. وضرورة التعايش مع الجلاد، وضرورة وقف صراع الحضارات .. وكأن المشكلة تكمن عند المسلمين .. وأن المسلمين هم الذين يمارسون العدوان على الطرف الآخر .. لا غيرهم!

* * * * *

ـ التوفيق بين القول بصراع الحضارات، وموقف دول الغرب من الحريات الدينية التي يمنحونها للمسلمين في بلادهم؟

فإن قيل: كيف نوفق إذاً بين الموقف الدولي والغربي الرأسمالي الديمقراطي الذي يسمح بحرية الاعتقاد، وحرية المسلمين في أن يمارسوا شعائرهم الدينية وبين القول بأنهم يُحاربون الإسلام والمسلمين .. وأنهم يغذون مبدأ صراع الحضارات؟!

أقول: فهم إذ يسمحون أن تُمارس شعائر الإسلام التعبدية على مستوى علاقة الفرد بخالقه ﷻ .. فهم لا يسمحون بالإسلام السياسي .. ولا بالإسلام القوي المتسلح بأسباب القوة والمنعة المادية الذي يقوى على مواجهة الحضارات الأخرى، والوقوف أمام زحفها .. ولا بالإسلام المستقل الذي يحكم البلاد والعباد وفق عقيدته ومنهجه ونظامه .. كما يجب أن يكون .. وكما أمر الله تعالى .. ولا بالإسلام الذي يتدخل في حياة الناس .. وشؤونهم العامة؛ على مبدأ قاعدتهم الكافرة المعروفة، التي تقوم حضارتهم على أساسها، مبدأ: فصل الدين عن السياسة والدولة ..

والحياة .. وأن ما لله لله؛ وهي الشعائر التعبدية المحصورة بعلاقة الفرد مع خالقه .. والتي تمارس فقط في زوايا المعابد والمساجد .. وما لقيصر لقيصر؛ وهو جميع شؤون الحكم والحياة!

بل حتى ممارسة الشعائر التعبدية ذات الطابع الفردي .. عندما يكون لها دلالة سياسية معينة .. أو قد تنعكس على حياة الناس بما لا يحلو لهم .. ولا يريدون .. تراهم يمنعونها ويُحاربونها؛ كموقف راعية الحرية ـ زعموا! ـ فرنسا من مسألة حجاب المرأة المسلمة في فرنسا .. وقد تابعها على موقفها هذا عدد من الدول الغربية .. علماً أن الحجاب لا يتعدى أن يكون فعلاً مقصوراً على المستوى الفردي الشخصي لا يمكن أن يتعدى إلى غيره .. ونحوه موقفهم المتشدد والعنصري من لحية الرجل المسلم .. أو أي زي يرتديه ينم عن هويته أو انتمائه الإسلامي!

وكذلك تدخلهم في سياسة المساجد ونشاطاتها .. وأوقات فتحها وإغلاقها .. ومن يدخل إليها ومن يخرج منها .. وتحديد موضوع خطبة الجمعة الذي سيُقرأ على المصلين فيها .. وإعداد الأئمة وبرمجتهم بما يتوافق مع القيم والعادات الغربية .. ومع ذلك فهم لا يتورعون أن يُملئوا بيوت الله بالدبابير والجواسيس الذين يتجسسون على عورات المسلمين وهم في بيوت الله لصالح الظالمين الذين يريدون أن يُطفئوا نور الله[٩]!

فهم بفعلهم وقولهم هذا قد طابقوا فعل وقول مَن قبلهم من المشركين، كما قال تعالى عنهم:﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾الأنعام:١٣٦. فتطابقت قلوبهم قبل أن تتطابق أقوالهم وأفعالهم ..!

هذه الحرية المزعومة هي في انتقاص مستمر .. وبخاصة عندما تسير في الاتجاه الذي يخدم الإسلام والمسلمين .. فحينئذٍ تُصبح الحرية متهمة .. ومجرمة .. تُرمى بالإرهاب والعمل لصالح الإرهاب .. تستحق المحاكمة والإعدام .. بينما عندما تسير في الاتجاه الذي يخدم كل ما

---

[٩] الذي ذكرناه أعلاه طريقة قديمة متخلفة في التدخل في شؤون المساجد والمصلين .. والتجسس على عوراتهم وأحاديثهم .. إذ أن كثيراً من المساجد في أوربة أصبحت مزروعة بالكاميرات الظاهرة والخفية التي تنقل صورة وكلام جميع من يدخل إليها ويخرج منها للأجهزة المخابراتية الأمنية المختصة، وبالتالي فهم لم يعد بحاجة ماسة إلى غرس الجواسيس بين المصلين للتجسس على عوراتهم، وعلى كلماتهم وكل ما يصدر عنهم .. في حين أن الكنائس ـ وبخاصة في دول الشرق الأوسط كمصر وغيرها ـ عالم مجهول .. لا يمكن التدخل في شؤونها، أو حتى معرفة ما يجري فيها .. يخطفون المسلمات ليسجنونهن في الكنائس ويحملونهن على الارتداد عن دينهن بالقوة .. ولا أحد يجرؤ أن يدخل أو يقرع أبواب تلك الكنائس .. كما يجري في مصر!!

هو مضاد للإسلام والمسلمين .. فحينئذٍ الحرية تُصبح مقدسة .. المساس بها .. جريمة لا تُغتفر .. وما أكثر الشواهد الدالة على ذلك لو أردنا الاستدلال!

ويُقال كذلك: أنَّ هذا القدر من الحرية الدينية الذي يُمنح للمسلمين ـ والذي هو في انتقاص مستمر ـ هو من جملة الحرية الدينية المسموح بها لجميع الطوائف والأديان الأخرى الموجودة في بلادهم .. وبالتالي ليس من السهل عليهم أن ينصوا القوانين التي تستثني صراحة المسلمين أو الدين الإسلامي من هذه الحرية الممنوحة للآخرين!

ومن كيد القوم ـ أرباب الحضارة الغربية الصليبية ورهبانها ـ ومكرهم ضد أي عملية جادة تستهدف استنهاض الأمة واستئناف حياة إسلامية راشدة، أنهم زرعوا في بلاد العرب والمسلمين ـ ومنذ عقود عدة ـ معوقات عدة تحيل بين المسلمين وأهدافهم .. منها طواغيت الكفر والظلم، وأنظمة ديكتاتورية ظالمة كفرها وظلمها مغلظ ومركب، لتقوم بالنيابة عنهم بمحاربة واستئصال أي توجه إسلامي جاد .. وهذه الأنظمة الفاشية الديكتاتورية الكافرة .. تلقى منهم كل دعم وتأييد ومباركة مقابل القيام بمهمتهم هذه .. وعلى قدر قيامهم بها بالشكل الفاعل والمؤثر يلقون الدعم والتأييد والمباركة!

من سياسة دول الغرب الديمقراطي النصراني المعتمدة نحو دول الشرق الأوسط .. أنهم يمدون حبلين: حبلاً يصلون به طواغيت الحكم الظالمين الديكتاتوريين فيقوونهم على الشعوب المقهورة وبخاصة عندما هؤلاء الطواغيت يقومون بواجب الخدمة والعمالة على الوجه المطلوب .. والتي منها وأد أي عمل إسلامي جاد راشد .. وحبلاً آخر يمدون به الشعوب المقهورة بنوع عطف وإحسان من خلال التعاطف مع بعض قضايا حقوق الإنسان .. وفي نفس الوقت يستقوون بالشعوب .. وغضب وثورة الشعوب .. على تأديب الحكام في حال خرج طواغيت الحكم عن شيء من السياسات المرسومة لهم والمُملاة عليهم من الخارج .. فهي سياسة الكيل بمكيالين!

كم من طاغية ظالم هددوه بتأييد ثورة شعبه عليه .. وعندما يستجيب الطاغية الظالم لكامل مطالبهم، ويسير في ركاب سياساتهم وخدمتهم .. ويسلمهم مفاتيح البلاد وخيراتها .. تراهم يُعينونه ويمدونه بحبل من القوة والحياة ليجلد شعبه من جديد .. ويزيلون عنه صفة الحاكم الديكتاتوري .. ليصبح الحاكم الديمقراطي .. فهو إن لم يدخل في مخططاتهم .. وخدمة سياساتهم ومآربهم .. فهو حاكم ديكتاتوري .. يُعينون شعبه عليه .. وإن دخل في مخططاتهم وخدمة أهدافهم وسياساتهم .. فهو حاكم ديمقراطي .. يُعينونه على شعبه!

فهم تارة يهددون طواغيت الحكم بالشعوب .. وتارة يهددون الشعوب بالحكام بحسب ما تتراءى لهم مصالحهم الخاصة والذاتية .. وهذه السياسة تستدعي منهم نوع علاقة مع الطرفين؛ طرف الأنظمة الحاكمة، وطرف الشعوب المعارضة لها .. ومن خلال هذه السياسة المزدوجة يسيطرون على الطرفين، ويتحكمون بالطرفين معاً .. وبنو قومي ـ وللأسف ـ لا يعلمون .. هذه حقيقة مكشوفة لا بد من إدراكها والتسليم بها!

* * * * *

ـ أوجه الخلاف بين الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية الديمقراطية الصليبية؟

فإن قيل: عرفنا دوافع الصراع وغاياته .. وحتميته .. ولكن هل ثمة اتفاق بين الحضارة الغربية الصليبية الديمقراطية والحضارة الإسلامية .. وما هي أوجه الخلاف بينهما .. وهل يعني ما تقدم أن الحضارة الغربية لا توجد فيها قيم حضارية معتبرة ..؟

أقول: هذه أسئلة هامة ـ لعلني أجبت عن بعضها في طيات ما تقدم في هذا البحث ـ أعيد فأجيب عنها هنا بشيء من التوسع والتفصيل، وأبدأ بالجواب عن السؤال التالي:

ما هي أوجه الخلاف بين الحضارتين: الحضارة الغربية الرأسمالية الديمقراطية الصليبية، والحضارة الإسلامية[١٠]؟

---

[١٠] فإن قيل علام خصصت الحديث عن الحضارة الغربية الرأسمالية النصرانية .. والمقارنة بينها وبين الحضارة الإسلامية .. دون غيرها من الحضارات السائدة في العالم، كالحضارة الصينية الشيوعية، والحضارات الوثنية البوذية والهندوسية .. أو الحضارة اليهودية؟!

أقول: لأسباب عدة: منها: أن هذه الحضارات لا توجد لها قيم حضارية تقوى على الوقوف أمام الحضارة الإسلامية ومدها الثقافي والقيمي .. ولا ذاك الرصيد الثقافي المعتبر الذي يستحق البحث والنقاش. ومنها: أن مجموع هذه الحضارات دخلت كحليف وتابع للحضارة الغربية النصرانية الرأسمالية في حربها القديمة الحديثة ـ المعلنة والمبطنة منها ـ ضد الإسلام وحضارته، فهم بعضهم أولياء بعض في أي حرب تُشن ضد الإسلام وحضارته. ومنها: أن للحضارة الغربية النصرانية تاريخ قديم ومليء بالكيد والحرب والعداء للإسلام وحضارته .. وهي بين الفينة والأخرى تحن لإحياء وتجديد هذا التاريخ والصراع .. وبخاصة إن توفرت لديها القوة المادية التي تمكنها من فعل ذلك، كما هو مشاهد في واقعنا المعاصر. ومنها: أن الملاحم الكبرى ستكون مع القوم .. مع الروم .. عند أبواب الشام .. وذلك قبل ظهور المسيح الدجال ونزول قاتله عيسى ﷺ بزمن قليل .. يوم لا يُقسم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة لشدة القتل والقتال، وكثرة المقتولين .. كما هو ثابت في أحاديث نبوية عديدة صحيحة .. لعلنا نأتي إلى ذكر بعضها إن شاء الله .. فهم أعداء الماضي والحاضر والمستقبل!

وللجواب عن هذا السؤال أقول: نعم، توجد أوجه خلاف عدة بين الحضارتين:

منها: أن الحضارة الإسلامية ربانية المصدر؛ إذ جميع قيمها الحضارية مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، بينما الحضارة الغربية الرأسمالية بشرية المصدر؛ إذ جميع قيمها الحضارية مستمدة من عقول وأهواء وتجارب البشر .. مجردة عن وحي السماء!

ومنها: أن الحضارة الإسلامية قائمة على عقيدة التوحيد؛ توحيد الخالق ﷻ في الخلق والأمر .. في العبادة، والطاعة، والحكم والتشريع .. فالله تعالى كما له الخلق فله الأمر، بينما الحضارة الغربية النصرانية قائمة على عقائد الشرك والوثنية والجحود والإلحاد؛ فأشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى، واتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً ومشرعين من دون الله .. فهم إن سلموا أن الخلق لله .. فهم يجعلون الأمر والتشريع لغير الله!

ومنها: أن الحضارة الإسلامية قائمة على مبدأ الإيمان والتصديق بجميع الأنبياء والرسل، لا نفرق بين أحدٍ من رسل الله ﷺ .. بينما الحضارة الغربية النصرانية تؤمن ببعض الأنبياء والرسل، وتكفر وتجحد ببعض، ففرقوا في الإيمان بين الأنبياء والرسل .. ومن آمنت بهم لا يتعدى إيمانها بهم ساحة التصديق وحسب؛ التصديق المجرد عن مطلق العمل والمتابعة.

ومنها: أن الحضارة الإسلامية شاملة لجميع جوانب الحياة: التعبدية، والأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعلمية .. لا تنافر بين العقيدة الإسلامية وبين تلك الشمولية .. بخلاف الحضارة الغربية النصرانية القائمة على عقيدة وثقافة فصل الدين عن الدولة، والسياسة، والحياة، وحصر الدين في الجانب الاعتقادي وحسب، فالحضارة الغربية لم تعد تعرف من شؤون دينهم سوى الولاء والتعصب الطائفي الصليبي .. وسوى التمسك بالصليب ورمزيته .. ومن دون أدنى التزام بتعاليم ومبادئ الديانة النصرانية حتى بعد حصول التحريف لها .. لعلمهم واعتقادهم أن دينهم المحرف الذي تلاعبت به أيدي الأحبار والرهبان . ومنذ زمن ولا يزالون . لا يلبي حاجيات وتطلعات الشعوب والمجتمعات، كما أنه لا يصلح لشؤون الحكم والسياسة، ومناحي الحياة الأخرى!

ومنها: أن الحضارة الإسلامية قائمة على التصور والاعتقاد بأن السيادة المطلقة في الأرض وفي السماء لله تعالى وحده، كما قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾الزخرف:٨٤. وأن هذا الكون . وما فيه ومن فيه . من ملكه ﷻ .. وهو خالقه والمتصرف به كيفما يشاء .. ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾الأنبياء:٢٣. وبالتالي فإن الإنسان مخلوق لله تعالى ومملوك له، وهو مُستخلف في الأرض لإعمارها وفق قانون وشرع الله، وهو محاسب ومسؤول عما استرعاه الله إياه واستأمنه عليه، لا يجوز له أن يخرج عن شريعة

وتعاليم مالك وخالق هذا الكون في شيء .. بينما الحضارة الغربية النصرانية قائمة على أن السيادة المطلقة هي للإنسان، وأن الإنسان هو المالك الحقيقي للأشياء .. وأنه هو الإله المطاع في الأرض، وبالتالي من حقه أن يقبل ما يشاء، ويرد ما يشاء، ويحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويفعل ما يشاء وفق ما يهوى ويريد .. ولا يجوز أن يُسأل عما يفعل .. ما دام فعله مجاز وفق القانون الوضعي .. الذي يضعه الأحبار والرهبان!

وكنتيجة لما تقدم عُرفت الحضارة الإسلامية بالمحافظة على القيم والأخلاق الحميدة التي شرعها الله تعالى لعباده .. بخلاف الحضارة الغربية . كنتيجة لما تقدم . فقد عُرفت بالتحلل، والتفسخ، والسفور، والإباحية .. والشذوذ الأخلاقي .. والتمرد على تعاليم وقيم الدين!

وكنتيجة لما تقدم كذلك عُرفت القيم الحضارية في الإسلام بالثبات .. فهي لا تقبل التغير والتبدل مهما تقادمت عليها الأزمان وإلى يوم القيامة .. بينما القيم الحضارية للحضار الغربية الديمقراطية النصرانية .. فهي في تقلب وتغير مستمر .. لا قرار لها ولا ثبات .. فما تستحسنه أهواؤهم ورغباتهم من قيم حضارية اليوم قد تستقبحه في اليوم التالي .. وما تستقبحه في اليوم التالي قد تستحسنه في اليوم الذي بعده .. وهكذا إلى ما لا نهاية!

وكنتيجة لما تقدم كذلك فإن السلوك الإنساني في الحضارة الإسلامية يخضع للشعور والإيمان بمراقبة الله تعالى له والتي لا تغيب عنه لحظة واحدة .. وبالتالي فهو منضبط وملتزم بمبادئ وأخلاق دينه وحضارته في السر والعلن .. في الرضى والسخط .. وفي حال حضور الرقيب من البشر وفي حال غيابه سواء .. بخلاف السلوك الإنساني في الحضارة الغربية النصرانية حيث لا قيمة عنده لرقابة الله تعالى عليه .. وإنما القيمة كلها لرقابة الحاكم وجنده .. ورقابة قانونه .. ورقابة الكاميرات المسلطة عليه .. فهو يلتزم بالقانون وينضبط سلوكياً ما شعر بمراقبة القانون والكاميرات له .. ويتهرب منه ومن تبعاته .. ويتحول إلى إنسانٍ آخر ومختلف .. ومتوحش .. ما شعر بغياب رقابة القانون والكاميرات عنه، وما أكثر الأوقات التي تغيب فيها رقابة القانون عن الناس؛ وهذا يعني أن الإنسان الغربي النصراني يفقد الوازع الذاتي الداخلي .. والرقابة الذاتية التي تحمله على الالتزام بما يُملى عليه من قوانين .. وأخلاقيات .. وسلوكيات إيجابية .. لذا فهو يحتاج إلى رقابة السلطات والكاميرات الخفية والظاهرة على مدار الوقت[١١]!

---

[١١] قد تستغرب لو قيل لك أن محلاً طوله وعَرضه عشرون متراً مربعاً فيه أكثر من عشر كاميرات منها الخفي ومنها الظاهر التي تُراقب الزبائن وهم يتسوقون ويشترون .. حتى وهم في دورات المياه .. هذا والناس مكتفون أغنياء لا يشكون الفقر ولا القِل .. فكيف لو كانوا فقراء تدفعهم الحاجة على أن يمدوا أيديهم على أموال الغير؟!

إن علمنا ذلك علمنا السبب الذي يحمل الإنسان الأوربي والأمريكي على أن يتصرف كإنسان متوحش غير متحضر عندما يخرج من بلده ليغزو بلداناً أخرى .. كما هي سيرتهم المشينة في العراق، وفي أفغانستان، وغيرها من البلدان .. حيث لا يعرفون في تلك البلاد أدنى قيمة ولا احترام لحقوق الإنسان .. والسبب أن تلك البلاد تخلو من الكاميرات التي تراقبهم على مدار الوقت .. وفي كل مكان .. وهو بخلاف ما تعودوا وتربوا عليه في بلدانهم الأصلية!

ومنها: أن الحضارة الإسلامية قائمة على الموازنة بين الروح والمادة؛ وإعطاء كل جانب حقه من غير إفراط ولا تفريط .. بينما الحضارة الغربية النصرانية قائمة على الجانب المادي وحسب، وإلى درجة التخمة .. وبالتالي فهي تعاني من فراغ قاتل في الجانب الروحي .. وهو ما يفسر ظاهرة فشو القلق النفسي، والانتحار في البلدان الأوربية والأمريكية .. وظاهرة الجري المحموم وراء الروايات والأفلام الخرافية .. لملء هذا الفراغ القاتل الذي يُعانون منه!

ومنها: أن الحضارة الإسلامية لها امتداد تاريخي حافل بالبذل والعطاء، والرقي والتسامح .. شهد به الأعداء قبل الأصدقاء .. يمر بجميع الأنبياء والرسل إلى أن ينتهي عند آدم ﷺ .. فجميع حضارة الأنبياء .. وما تخللته حياتهم العظيمة من عطاء وإنجازات .. عبر تاريخهم كله وإلى يومنا هذا .. هي من الحضارة الإسلامية .. بينما حضارة الغرب النصراني مبتورة الأصل .. ليس لها ذاك التاريخ والامتداد، ولا ذاك العطاء المميز .. ولا ذاك التاريخ الحضاري الإنساني الذي يستطيعون أن يتماجدوا ويفتخروا به أمام أبنائهم .. بل ما من غزوة غَزَوها ويغزونها وإلا ويجدون أنفسهم ـ ولو بعد حين ـ مضطرين للاعتذار عما ارتكبوه من جرائم ومجازر وفظائع لا تليق بالإنسان مهما كان متخلفاً .. وما جدالهم الآن عما ارتكبوه ولا يزالون يرتكبونه من انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان في سجن جوانتنامو .. وأبو غريب في العراق .. وغيرها من السجون .. لأكبر شاهد ودليل على ما ذكرناه!

راجع ما كُتب وقِيل عن الحروب الصليبية الأولى .. ثم راجع ما كتب وقيل عن الغزو الصليبي المعاصر واستعمارهم لبلاد المسلمين .. وكذلك عن المجازر الجماعية التي ارتكبتها أمريكا بحق سكانها الأصليين .. وبحق الأفارقة السود .. وما ترتكبه الآن ـ بتأييد ومباركة الغرب

وبالتالي عندما تتعرض مدينة من مدنهم إلى حدث يؤدي إلى إطفاء الكهرباء .. وبالتالي إلى تعطيل كاميرات الرقابة .. فحدث حينئذٍ عن الاعتداءات الصارخة على الأموال والمحلات العامة والخاصة .. ولا حرج!

الصليبي ـ من مجازر وانتهاكات صارخة لكرامة الإنسان في أفغانستان، والعراق، وفلسطين، وغيرها من البلدان![١٢].

* * * * *

ـ هل للحضارة الغربية قيم حضارية معتبرة؟

فإن قيل: هل يعني ذلك أن الحضارة الغربية النصرانية لا توجد عندها قيم حضارية معتبرة وجيدة؟

أقول: لا نستطيع أن نقول أن الحضارة الغربية تخلو من القيم الحضارية المعتبرة؛ لأن القول بذلك يعني انهيار الحضارة الغربية وزوالها كلياً عن الوجود .. لزوال مقومات وجودها .. فزوال القيم الحضارية مطلقاً لأي شعب من الشعوب معناه زوال حضارتهم بالكلية .. وهذا لا نقوله عن الحضارة الغربية .. ولكن الذي نقوله ـ وهو ما يقتضيه العدل الذي يلزمنا به ديننا الحنيف ـ أن الحضارة الغربية المعاصرة ـ على ما تقدم ذكره من مآخذٍ أُخذت عليها ـ فإنها تتحلى ببعض القيم الأخلاقية الحضارية المعتبرة .. التي تمدها بالقوة والوجود، والحياة!

من هذه القيم: الالتزام بقيمة البحث العلمي التجريبي .. والنظام والتنظيم، واستغلال الوقت، والموارد الطبيعية والبشرية فيما ينفعهم في دنياهم .. والدقة في المواعيد .. والجودة في العمل .. وحب الاطلاع والاستكشاف العلمي، والإرادة القوية على النهوض والتقدم .. فهذه قيم حضارية معتبرة، وهي موجودة فيهم .. ولها دور بارز في نهضتهم ونشأة حضارتهم.

ومنها: قيم التعامل بالعدل والمساواة فيما بينهم .. فالجميع الحاكم والمحكوم .. والسيد والوضيع .. والقوي والضعيف .. يتساوون أمام قانونهم[١٣].

---

[١٢] نشرت " BBC " في موقعها على الإنترنت مقالاً بعنوان" أساس نيويورك الإفريقي "، جاء فيه: تقع بقايا عشرين ألف رجل وامرأة تحت شوارع نيويورك المزدحمة لمدة تربو عن القرون الثلاثة في انتظار أن تروي قصة العبودية في المدينة ... اـ هـ. فأي تاريخ لحضارة تُشيِّدُ عمرانها على مقابر جماعية .. ومجازر ارتكبت بحق الآلاف من بني البشر، لا ذنب لهم سوى أن بشرتهم سوداء!

[١٣] ولكن هذا العدل مقصور على التعامل فيما بينهم داخل بلدانهم .. بخلاف تعاملهم مع الآخرين خارج بلدانهم، فهو قائم على العدوان، والظلم، والإرهاب .. والانتهاكات لأبسط مقومات حقوق الإنسان .. وما أكثر الشواهد المعاصرة الدالة على ذلك وقد تقدم ذكر بعضها .. بينما عدالة الإسلام فهي تلزم المسلمين بالعدل فيما بينهم ومع الآخرين ممن عاداهم وخاصمهم .. في داخل بلادهم وخارجها، وأينما حلوا وأقاموا، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾المائدة:٨. من هنا تكمن القمة والعظمة

ومنها: قيم الحرية والتسامح السائدة في بلادهم وفيما بينهم .. مع التنبيه أن جزءاً من الحريات السائدة في بلاد الغرب لا يمكن أن تُصنف كقيمة حضارية معتبرة؛ لآثارها السلبية والمدمرة على عقول وأخلاق وعطاء الشعوب!

ومنها: قيمة التضامن والتكافل الاجتماعي المعمول به في بلادهم وفيما بينهم؛ حيث لا تجد منهم المتسول ولا الفقير المعدوم، ولا المريض الذي لا يقدر على العلاج، إذ كل واحدٍ منهم ـ بسلطان القانون ـ يجب على الدولة أن توفر له المسكن .. والمأكل .. والملبس .. والعلاج .. والتعليم .. فهذه أساسيات لا تجد واحداً منهم محروماً منها.

ومنها: قيمة التنظيم والاهتمام بالعمل المؤسساتي .. وقيمة العمل بمبدأ الشورى والتشاور فيما بينهم، وعلى جميع المستويات؛ إذ جميع قراراتهم تؤخذ بصورة جماعية .. بعد أن تأخذ حقها من التداول والنقاش والتشاور فيما بينهم .. لا يوجد عندهم فرد يصدر بمفرده قرارات تمس مصلحة الشعوب والمجتمع والدولة!

ومنها: قيمة محاسبة الحكام لو بدر منهم أيُّ تقصير يمكن أن يتفادوه .. أو وقعوا في الفساد الإداري، أو في الغش، والخيانة، والتصرف بأموال العامة لمصالحهم الخاصة الشخصية أو العائلية، أو الحزبية!

ما أسهل عليهم أن يقولوا لحاكمهم: من أين لك هذا .. وكيف اكتسبته .. وهذه قيمة حضارية راقية، حُرِمَها العالم الإسلامي ومنذ زمن .. بسبب ظلم وطغيان الحكام المتسلطين على بلاد ومقدرات المسلمين!

ومنها: قيمة الانتصار للمظلوم من ظلم الحكام والملوك .. ولو بعد حين .. وهذا المعنى قد أشار إليه عمرو بن العاص ﷺ قبل ألف وأربعمائة عاماً، مستنبطاً إياه من حديث سمعه عن النبي ﷺ، كما في صحيح مسلم: عن موسى بن عُلَيٍّ عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:" تقوم الساعة والروم أكثرُ الناس ". فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟ قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كرةً بعد فرّة، وخيرهم لمسكينٍ ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك ". أي يمنعون شعوبهم .. والأفراد .. من ظلم ملوكهم وحكامهم!

للحضارة الإسلامية التي تلتزم العدل مع من خالفها وعاداها كما تلتزمه مع نفسها وأبنائها .. تلتزم العدل مع الآخرين في الرضى والسخط سواء .. تنتصف للحق ولو من نفسها .. ومن أبنائها .. وكان ذلك لصالح أعدائها!

قلت: هذه الخصال الحضارية التي أشار إليها عمرو بن العاص ﷺ. قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام. والتي استفادها من حديث النبي ﷺ .. نلمسها فيهم في هذا الزمان بوضوح .. وهي. مع القيم الأخرى الآنفة الذكر. سبب في قوتهم وتفوقهم .. وظهور حضارتهم .. وتقدمهم العلمي والتكنولوجي .. كما أنها سبب في ظهورهم على الناس وخضوع العالم لدولهم وحكمهم وسياساتهم، وحكامهم!

قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على هذا الحديث، كما في مختصر صحيح مسلم:" قال صديق حسن خان في الشرح: لم يشرح النووي هذا الحديث ولم يبين المراد بـ (الروم)، والظاهر أنهم النصارى، وهذه الخصال الخمسة موجودة فيهم، وهم ولاة الأمر اليوم في أكثر الأرض، وهذه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث وقع ما أخبر به مطابقاً لنفس الأمر، ولله الأمر من قبل ومن بعد "ا- هـ.

قلت: هذا في زمان صديق حسن خان .. فكيف لو نظر إليهم وهم في زماننا .. وكيف أنهم قد سادوا على البلاد والعباد؟!

* * * * *

- لا أثر للقيم الحضارية في قيام الحضارات من دون أناسٍ يتبنونها، ويترجمونها في واقع الحياة.

ولكن نعود فنقول: هذه القيم الحضارية التي عُرفوا بها، رغم أن الإسلام يأمر بها، وهو السبّاق إلى تبنيها والدعوة إليها .. ولا نحيد عن الصواب والحقيقة لو قلنا أن الآخرين استفادوها منا ومن حضارتنا .. إلا أن المسلمين. في عصورهم المتأخرة المتخلفة. لما تخلفوا عنها وعن العمل بها .. وعملوا بغيرها وخلافها من القيم اللاحضارية .. وعمل بها غيرهم على ما هم عليه من كفر وغير ذلك مما تقدم من صفاتهم .. تخلف المسلمون عن قيادة الأمم والشعوب .. بل وعن قيادة أنفسهم كذلك. بعد أن كانوا بقيمهم الحضارية الإسلامية الراقية قادة للعالم أجمع. ليتولى مهمة القيادة والريادة غيرهم .. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الله تعالى لا يُحابي أحداً .. حاشاه .. قد خلق الحياة وفق قوانين ونواميس محددة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فمن أخذ بهذه النواميس وعمل بها وبمقتضاها وصل وبلغ القمم العالية وأدرك مراده وإن كان كافراً، ومن تركها وتخلف عنها .. وتواكل .. لن يصل، وطاب له العيش في الذل والركام وبين الحُفر!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى ١٤٦/٢٨: إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويُقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا

تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال ﷺ:" ليس ذنبٌ أسرع عقوبةً من البغي، وقطيعة الرحم "؛ فالباغي يُصرَع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدلٍ لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة ا- هـ.

لذا فأقول: إن أرادت الأمة الإسلامية أن تُعيد لحضارتها عزها ومجدها الأول .. ودورها الريادي والقيادي الذي كان لسلفنا الصالح لا بد لها من العودة والتمسك بمجموع القيم الإسلامية الحضارية التي كانت سبباً في عزها ومجدها .. ومن دون أن تفرط بشيءٍ منها.

لا بد أن نكون أكثر من الآخرين عدلاً ورحمة بالعباد .. هذا إذا أردنا أن يتنزل علينا نصر الله .. وأردنا للأمة أن تستأنف عزها ومجدها ودورها الريادي من جديد .. فالله تعالى يُحب العدل وينصر أهله .. ويبغض الظلم ويخذل أهله، وفي الحديث القدسي:" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالَموا "مسلم.

وقال ﷺ:" اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً؛ فإنه ليس دونها حجاب "[١٤].

لا أثر للقيم الحضارية ولا فاعلية لها في قيام الحضارات إن لم تتجسد هذه القيم في سلوك وواقع وحياة أتباعها .. فالقيم مهما كانت عظيمة وراقية تبقى معانٍ مجردة لا أثر لها في الوجود والواقع .. إلى أن يأتي من يأخذها بقوة وصدق، فيحييها .. ويُجاهد دونها .. ويترجمها إلى سلوك وواقع في حياته وحياة الآخرين العملية.

لذا لا يكفي أن نتكلم عن عظمة الإسلام كعقيدة، وشريعة، وأخلاق، وقيم حضارية راقية وحسب من دون أن نجسد هذه العقيدة والقيم في سلوكنا وواقعنا وجميع جوانب حياتنا، فالسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما سُئلت عن خُلق النبي ﷺ قالت:" كان خلُقه القرآن "؛ أي كانت أخلاقه وسيرته ﷺ خير ترجمان وتفسير للقرآن الكريم .. تريد أن ترى القرآن مفسراً ومترجماً ترجمة عملية فانظر إلى حياة ومواقف وأعمال المصطفى ﷺ!

من هنا جاء الوعيد الشديد بحق من يقول ولا يفعل، ويَعلَم ويُعلِّم ولا يلتزم في نفسه بما يعلم، وينهى عن خُلق ثم يأتيه أو يأتي ما هو أسوأ منه، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾الصف:٢-٣.

لا يكفي أن نقول كان آباؤنا .. كان أجدادنا .. ونطيل الوقوف على أطلالهم .. إذ لا بد كذلك من أن نقول ها نحن .. وأن نصنع المجد بأيدينا وبدمائنا وعرقنا كما صنعوا .. ونجاهد كما

---

[١٤] أخرجه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: ٧٦٧.

جاهدوا! .. هذه الحقيقة . رغم كثرة المعوقات الشاقة التي يصطنعها طواغيت الحكم والكفر في بلاد المسلمين .. أمام عملية التغيير . أصبحت تُعيد كثيراً من المسلمين إلى رشدهم وإسلامهم .. وأخلاق وقيم دينهم الحنيف .. وها نحن . ولله الحمد . نشهد صحوةً إسلامية مباركة .. وأوبة جادة وصادقة إلى الحق من شرائح عدة من أبناء الأمة .. وعلى مستوى امتداد الأمة كلها وفي جميع أمصار المسلمين .. وهي تعتبر الخطوات الأولى . إن شاء الله . نحو النصر والتمكين والسؤدد ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾الحج:٤٠.

* * * * *

ـ الحوار بين الحضارات.

فإن قيل: هل يُفهم من القول بحتمية الصراع بين الحضارات المتنافرة في مفاهيمها وقيمها وثوابتها يعني عدم الانتفاع من إجراء الحوار بين تلك الحضارات، وتحديداً بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الديمقراطية النصرانية؟!

أقول: الحوار بين حضارة الإسلام والآخرين وجدالهم بالتي هي أحسن بابه مفتوح لا يمكن إغلاقه؛ لأن الإسلام دين رحمة للعالمين .. وبالتالي لا بد من بذله للآخرين بالتي هي أحسن، وبأسلوب أخلاقي يرقى إلى مستوى عظمة هذا الدين، إذ لا إكراه في الدين، كما قال تعالى:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾البقرة:٢٥٦. وقال تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾النحل:١٢٥. فأمرنا ربنا ﷻ بمجادلتهم بالتي هي أحسن، أي بالطريقة التي تؤلف قلوبهم على الإسلام وحب الإسلام، وليس على تنفيرهم. وقال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾سبأ:٤٦.

وقال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران:٦٤. لا بد من أن يتسم الحوار بهذه الصراحة، وهذا الوضوح:﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾؛ فإن أعرضوا وأبوا إلى أن يتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. وأن يُعبِّدوا العبيدَ للعبيد .. ينتهي الحوار .. وتأتي المفاصلة التامة بكل

وضوح، ومن دون أدنى تلجلج أو ارتباك، بقولنا لهم:﴿ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، لكم دينُكم ولنا دين.

وفي الحديث في صحيح البخاري عن علي ﷺ قال: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ:" انفذ على رِسلِكَ حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم ". من هذه النصوص الشرعية وغيرها استفاد أهل العلم أن بذل الدعوة والنصح للآخرين يجب أن يتقدم ويسبق القتال والمواجهة بالسنان.

وقال ﷺ:" يسروا ولا تُعسروا، وبشروا ولا تنفروا "البخاري.

فالحوار مشروع وهو مستمر .. وبابه مفتوح لا يمكن إغلاقه .. حتى مع أعتى وأطغى طغاة الأرض .. ولكن على أن يكون مبنياً على أسس علمية وشرعية؛ الغاية منه إنصاف الحق .. وبيان الحق .. وأطر المخطئ إلى الحق .. وانصياع الجميع إلى الحق، وتحكيم الحق .. وليس لمجرد المداهنة والمجاملة في الباطل .. على مبدأ ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾القلم:٩. أو حصول المجالسة والمؤاكلة ومن ثم ينفض المجتمعون وهم أكثر تنافراً وتلاعناً .. أو لمجرد إصباغ الشرعية على الباطل وأهله .. أو أطر الحق والباطل إلى نقطة تتوسطهما، من قبيل التقريب والجمع بين الشيء وضده في آن واحد، والعمل بمفهوم الوسطية المزعومة التي تعني التوسط بين الحق والباطل؛ لا إلى الحق .. ولا هم إلى الباطل أقرب؛ وإنما وسط بينهما، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء ﴾النساء:١٤٣. كما يصنع ذلك كثير من دعاة حوار الحضارات في هذا الزمان .. ومن دون أي جدوى أو فائدة تُذكَر[١٥].

---

[١٥] استوقفني مقال نُشر في جريدة " الشرق الأوسط " بتاريخ ٢٠٠٤/٥/٦، للأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر . كما ورد التعريف عنه . عبد الصبور مرزوق، يقول فيه: لا جدوى من وراء حوار الأديان والحضارات؛ لأنه حوار أشبه بحوار الطرشان، وهو مضيعة للوقت .. ا- هـ.

أقول: هو أشبه بحوار الطرشان، وهو مضيعة للوقت .. لأن الغرض منه طمس الحقائق .. وإلغاء فكرة الصراع والتدافع بين الحق والباطل .. وحضارة كل منهما .. ولأن الحوار لم يعقد على أسس علمية وعلى نية وقصد بيان الحق فيما تم الاختلاف فيه .. وإنما يُعقد للمداهنة والمجاملة .. وتحكيم الهوى .. ولتذويب وتمييع مفهوم العقيدة الإسلامية أكثر فأكثر .. ومفهوم الولاء لهذه العقيدة .. ولتثبيت شرعية باطل الآخرين في أذهان الشعوب والأجيال القادمة؛ وبخاصة عندما يحظى الباطل وأهله بعبارة ثناء وإطراء من قبل أهل الحق أو من يمثلونه .. ولتقريب الحق والباطل إلى أقرب نقطة تتوسطهما، وربما إلى نقطة تكون أقرب إلى الباطل منها

الحوار ينفع كذلك عندما يكون الحق قوياً له دولته وشوكته .. وسلطانه .. وأراد الآخرون أن يدخلوا في سلمه وعهده وأمانه وجواره .. وفق شروطه ومبادئه وقيمه .. فبعدها يُقال لهم .. لا تثريب عليكم ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .. لكم دينكم ولنا دين!

* * * * *

ـ متى ينتهي الصراع بين الحضارات؟

فإن قيل: إلى متى سيستمر هذا الصراع والتدافع بين الحضارات .. أليس له حد ينتهي عنده .. أليس له نهاية؟!

أقول: سيستمر هذا الصراع والتدافع ـ بصورة أو بأخرى ـ بين الحق وأهله من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى إلى حين ظهور المسيح الدجال وفتنته آخر زعماء الكفر والضلال .. ونزول عيسى عليه السلام آخر زعماء وقادة وأمراء الحق وجنده .. وتكون آخر معركة فاصلة بين الحق والباطل هي المعركة التي يقودها عيسى عليه السلام فيقتل فيها المسيح الدجال ومن معه من اليهود وغيرهم ممن يتابعونه ويُناصرونه .. في هذه المعركة ينطق الحجر والشجر فيقول يا مسلم يا عبد الله تعال ورائي يهودي فاقتله إلا شجر الغرقد .. وبالانتهاء من هذه المعركة الفاصلة ينتهي الصراع بين الحضارات، ومن على وجه الأرض كلها[١٦] .. ويسود الأمن والسلام والرخاء .. وتهلك الملل كلها إلا ملة الإسلام؛ حيث يضع عيسى عليه السلام الجزية فلا يقبلها من أحد؛ إما الإسلام وإما القتل والقتال .. ويدق الصليب ويُزيله، ويقتل الخنزير .. فيمكث عليه السلام بين المسلمين أربعين سنة هي من أفضل وأهنأ سنين الدهر .. يعم فيها الرخاء والأمن والسلام .. وتضع الحرب أوزارها .. ثم يتوفاه الله تعالى .. ثم يأتي أمر الله فيُرسل ريحاً كريح المسك مَسها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته .. ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة .. ولما كانت هذه الأمور غيبية لا مجال فيها للرأي والاجتهاد ندع النصوص الشرعية الصحيحة هي التي تتكلم لتبين لنا ذلك كله.

إلى الحق .. وليس لأطر الباطل إلى الحق .. لذلك لا نجد لهذه الحوارات الحضارية بركة ولا نفعاً يُذكر .. وهي أشبه ما تكون بحوار الطرشان والخرسان، زادها الله طرشاً!

[١٦] بعد هذه المعركة يخرج يأجوج ومأجوج .. وتظهر فتنتهم .. إلا أنهم يزولون بسبب كوني يشاؤه الله تعالى ويُقدره رحمة بالمؤمنين .. " فيرسل الله عليهم النَّغَف في رقابهم، فيصبحون فَرْسى كموت نفسٍ واحدة " ومن دون أن تحصل أية مواجهة بينهم وبين أهل الحق .. لذا قلنا أن آخر معركة بين الحق والباطل هي المعركة التي يَقتل فيها المسيحُ عليه السلام المسيح الدجال.

أما أن الصراع والقتال والجهاد، والتدافع بين الحق والباطل مستمر إلى أن يأتي أمر الله، وتقوم الساعة وتظهر أشراطها وعلاماتها الكبرى، فهو لقوله ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "مسلم.

ولقوله ﷺ:" لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون" مسلم. أي ظاهرون بالحق على من ناوأهم وخالفهم.

ولقوله ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة "مسلم.

ولقوله ﷺ:" لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة" مسلم.

ولقوله ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس "مسلم.

وعن سلمة بن نفيل الكندي، قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، فقال رجل: يا رسول الله، أذال الناس الخيل . أي استخفوا بها وتركوها .، ووضعوا السلاح، وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها! فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال:" كذبوا؛ الآن، الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوبَ أقوامٍ ويرزقهم منهم، حتى تقومَ الساعة، وحتى يأتي وعدُ الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة "[١٧].

وقال ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"[١٨].

وغيرها كثير من الأحاديث والنصوص التي تدل على وجود هذه الطائفة المنصورة، وعلى استمرارية وجودها في كل زمان .. سواء كان للمسلمين خليفة وإمام أم لم يكن .. وأنهم ظاهرون على الحق .. وأنهم منصورون بالحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم .. وإلى يوم القيامة.

وأما الدليل على ظهور الدجال .. ونزول عيسى عليه السلام وقتله للدجال فهو لقوله ﷺ:" لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق[١٩] فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافُّوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سَبوا منا نقاتلهم، فيقول

---

[١٧] صحيح سنن النسائي: ٣٣٣٣ .

[١٨] صحيح سنن ابن ماجه:٦.

[١٩] موضعان بقرب حلب على حدود تركيا .. مما يدل على أن تركيا يومئذٍ تكون بيد الروم، وخاضعة لحكم وسياسة الروم، ولعل سعي تركيا اليوم لكي تكون من ضمن دول الاتحاد الأوربي وتبعاً لها ولسياستها ودستورها .. يكون سبباً لهذه النتيجة التي أشار إليها الحديث.

المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا[٢٠]، فيقاتلونهم فينهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم، ويُقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يُفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية[٢١]، فيما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح[٢٢] قد خلفكم في أهلكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام، خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فأمهم، فإذا رآهم عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده[٢٣] فيريهم دمه في حربته " مسلم.

وقال ﷺ:" : " ليس بيني وبينه . يعني عيسى ﷺ . نبي وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجلٌ مربوع، إلى الحُمرة والبياض، بين ممصرتين[٢٤]، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب[٢٥]، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية[٢٦]، ويُهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيحَ الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى فيصلي عليه المسلمون[٢٧]".

وأما الدليل على قتل اليهود ممن يكونون مع الدجال يومئذٍ، وقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله تعال ورائي يهودي فاقتله، فهو لقوله ﷺ:" لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو

---

[٢٠] فيه أن الخير باقٍ في المدينة وأبنائها .. وأن الحواجز الإقليمية والوطنية المفروضة الآن ستزال وهي لا تمنع من نصرة المسلمين بعضهم لبعض .. مهما اختلفت أمصارهم أو تباعدت .. وأن القرار السياسي يومئذٍ يكون بيد المسلمين أنفسهم .. وليس مُلكاً أو تبعاً لشرق أو غرب!

[٢١] وهو الفتح الثاني لهذه المدينة .. والحديث فيه دليل أن القسطنطينية ستعود ثانية إلى حظيرة الكفر والشرك والردة . كما هو واقعها الآن . وأنها ستُفتح وتُحرر ثانية .. بعد الفتح الأول الذي تم على يد البطل المجاهد محمد الفاتح العثماني.

[٢٢] المراد به المسيح الدجال، كما جاء ذلك صريحاً في رواية ثانية.

[٢٣] أي يقتله الله بيد عيسى ابن مريم عليه السلام.

[٢٤] ممصرتين: ثياب فيها صفرة خفيفة.

[٢٥] أي يكسره، ويمنع من رفعه كشعار دال على الكفر والكذب.

[٢٦] فهو لا يقبلها من الكفار، فإما الإسلام وإما القتل والقتال.

[٢٧] صحيح سنن أبي داود: ٣٦٣٥.

الشجر: يا مسلم[٢٨]! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله إلا الغرقد[٢٩] فإنه من شجر اليهود " مسلم.

وقال ﷺ:" قال عيسى افتحوا الباب فيُفتح، ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً، ويقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتلُه، فيَهزِمُ الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء؛ لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة . إلا الغرقدة؛ فإنها من شجرهم لا تنطق . إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال فاقتله "[٣٠].

أما أن القتال والصراع سيتوقف مطلقاً بقتل وقتال الدجال ومن معه .. ومن بعدها سيعم الأمن والسلام والرخاء .. فهو لقوله ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال "[٣١]. فكون آخر الطائفة الظاهرة المنصورة تقاتل المسيح الدجال .. فدل أنه ليس بعد قتال الدجال قتال.

ولقوله ﷺ:" فيكون عيسى ابن مريم عليه السلام في أمتي حكَماً عدلاً، وإماماً مُقسِطاً، يدقُّ الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة[٣٢]، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وتُرفع الشحناء والتباغض، وتنزع حُمَةَ كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره.

وتُفِرُّ الوليدةُ الأسدَ فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبُها. وتُملأ الأرض من السِّلم كما يُملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يُعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتُسلَب قريشٌ مُلكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نباتها بعهد آدم، حتى يجتمع النفر على القِطف من العنب فتُشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم، يكون الثور بكذا وكذا من

---

[٢٨] وليس يا عربي أو يا كردي، أو يا تركي .. أو يا فارسي .. وإنما يا مسلم .. يا موحد .. والحديث فيه أن التحرير الكامل سيتم على أيدي المؤمنين الموحدين .. وليس على أيدي الزنادقة العلمانيين .. ولا الخونة المنافقين!

[٢٩] وقد أخبرت بأن اليهود في فلسطين . لعلمهم بصدق ما أخبر به النبي ﷺ . يكثرون من زراعة هذا النوع من الشجر، شجر الغرقد .. الذي لا يبقى يومئذٍ حليف لهم في الأرض سواه!

[٣٠] صححه الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه " قصة المسيح الدجال، ونزول عيسى عليه السلام ".

[٣١] صحيح سنن أبي داود:"٢١٧٠".

[٣٢] فلا يأمر ولا يسعى على جباية صدقة الزكاة، لكفاية الناس يومئذٍ وعدم وجود الحاجة إليها .. باب من أبواب الخير يُغلَق، والحديث فيه دلالة على أن الزكاة ليست شرطاً لصحة الإيمان كالصلاة، والله تعالى أعلم.

المال، وتكون الفرس بالدريهمات. قالوا: يا رسول الله! وما يُرخِص الفرس؟ قال: لا تُركَب لحربٍ أبداً. قيل: فما يُغلي الثَّور؟ قال: تحرث الأرض كلها "[٣٣].

وأما الدليل على أن عيسى ﷺ يمكث بين المسلمين أربعين سنة .. ثم يتوفاه الله تعالى .. ثم يأتي أمر الله فيرسل ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير تقبض أرواح المؤمنين .. ثم تقوم القيامة على شرار الخلق، فهو لقوله ﷺ المتقدم:" فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى فيُصلي عليه المسلمون ".

ولقوله ﷺ:" فبينما هم كذلك . أي في النعيم الذي عم وساد بعد الحرب مع الدجال وهلاك يأجوج ومأجوج . إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمنٍ وكل مسلم، ويبقى شرارُ الناس يتهارجون فيها تهارُج الحمُر، فعليهم تقوم الساعة " مسلم.

ولقوله ﷺ:" إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان إلا قبضته " مسلم.

وعن عبد الرحمن بن شُماسَة المهري قال: كنت عند مَسْلَمَةَ بنُ مُخَلَّدٍ وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا ردَّه عليهم. فبينما هم على ذلك أقبل عُقبةُ بنُ عامرٍ فقال له مَسلمة: يا عُقبةُ اسمع ما يقول عبد الله. فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسولَ الله ﷺ يقول:" لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك "، فقال عبد الله: أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مَسُّهَا مَسُّ الحرير فلا تَترُكُ نفساً في قلبه مثقال حبة من إيمانٍ إلا قبضته، ثم يبقى شرارُ الناس عليهم تقوم الساعةُ " مسلم.

فيكون المراد من قوله ﷺ:" إلى يوم القيامة "؛ أي " أنهم لا يزالون على الحق حتى تقبضهم هذه الريح اللينة قرب القيامة وعند تظاهر أشراطها، فأطلق في هذا الحديث بقاءهم إلى قيام الساعة على أشراطها ودنوها المتناهي في القرب، والله أعلم "[٣٤].

وبعد، هذا هو مبدأ الصراع .. وهذا هو منتهاه .. وهذه هي حقيقته وطبيعته .. راياته واضحة المعالم لا غموض فيها ولا التباس .. لا مجال للجحود أو النكران أو التأويل أو الهروب من الواقع .. لا بد للأمة . إن أرادت أن تستأنف حياة عزها ومجدها وسؤدُدِها من جديد . من أن

---

[٣٣] صححه الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه " قصة المسيح الدجال، ونزول عيسى ﷺ ".

[٣٤] قاله النووي في شرحه لصحيح مسلم:١٣٢/٢.

تروِّض نفسها لكي تتحمل مسؤولياتها كاملة تجاه دينها .. وأرضها .. وحرماتها .. ووجودها .. والعالم أجمعين .. وإلا فلتروض نفسها لقبول مزيدٍ من الذل والخنوع والنكبات، ومزيد من دفع الضرائب الباهظة المكلفة للباطل وأهله؛ تدفعها من دينها، وأبنائها، وعِرضها، وعزتها، وكرامتها، وأوطانها، ومالها، ووجودها، وحريتها .. على موائد وشهوات ورغبات الطواغيت الظالمين الآثمين .. والأعظم من ذلك كله أنها بذلك تُعرِّض نفسها للاستبدال .. ولغضب الرب ﷻ وسخطه وعذابه ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾الشعراء:٨٨-٨٩.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾المائدة:٥٤.

اللهُمَّ إنِّي قد بلَّغتُ فاشهَدْ .. اللهُمَّ إنِّي قد بلَّغتُ فاشهَدْ.

وصلى الله على سيدنا ونبينا وقائدنا ومعلمنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد المنعم مصطفى حليمة

" أبو بصير الطرطوسي "

١٤٢٧/٥/٢٢ هـ. ٢٠٠٦/٥/٢٠ م.

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحـة
المقدمة	٢
معنى الحضارة ومفهومها	٤
وجود الصراع بين الحضارات	٧
الأدلة النقلية على وجود الصراع بين الحضارات	٩
الأدلة العقلية على وجود الصراع بين الحضارات	١٦
أدلة الواقع على وجود الصراع بين الحضارات	١٧
التوفيق بين القول بصراع الحضارات، وموقف دول الغرب من الحريات الدينية التي يمنحونها للمسلمين في بلادهم	٢٣
أوجه الخلاف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية	٢٦
هل للحضارة الغربية قيم حضارية معتبرة	٣٠
لا أثر للقيم الحضارية في قيام الحضارات من دون أناسٍ يتبنونها ويترجمونها في واقع الحياة	٣٢
الحوار بين الحضارات	٣٤
متى ينتهي الصراع بين الحضارات	٣٦
الفهرس	

www.abubaseer.bizland.com